وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
شعبة الفلسفة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة ماستر أكاديمي

الشعبة: فلسفة

التخصص: تاريخ الفلسفة

إعداد الطالبة : قريدة فاطمة

مذكرة بعنوان :

علاقة الدين بالسياسة في فلسفة باروخ سبينوزا

تاريخ المناقشة :2016/05/25

أعضاء لجنة المناقشة :

أ:عمر برابح.....جامعة قاصدي مرباح ورقلة.....مشرفا ومقرارا

أ:طاهير رياض.....جامعة قاصدي مرباح ورقلة.....مناقشا

أ:لعموري شهيدة.....جامعة قاصدي مرباح ورقلة.....رئيسا

السنة الجامعية2016/2015م

الإهـــداء

اهدي ثمرة هذا الجهد :

إلى النور الذي أنار دربي و الريحان الذي عطر حياتي

إليك أمي الغالية حفظك لي ربي و رعاك ....

إلى ينبوع الحنان و الحماية إلى من هو أملي و سندي القوي

إليك أبي الغالي حفظك لي ربي و رعاك ....

إلى روح عمي حسين الطاهرة الزكية رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته

إلى بهجة حياتي أخوتي(فضيلة ، وسيلة

مليكة ، عاشور)

إلى و صديقاتي **(رباب، أسماء، سهيلة، سهيلة ك، فطيمة، نجاة، زهرة ،سهيلة خير الله)وكل طالب علم وخاصة طلاب شعبة الفلسفة جامعة ورقلة**

وإلى الزميل الأستاذ محمد حنيشات وإلى كل من ساعدني

شكر وعرفان

قال تعالى في كتابه العزيز :" **رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل عمل صالحا ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**" سورة النمل الآية "19"

أحمد الله أولا و أخير و أشكره شكرا يليق بعظمته و جلاله، أن يسر لي إتمام هذه الدراسة فله الحمد و الشكر على نعمه التي لا تحصى.

و لرسوله الكريم الذي غرس في قلوبنا حب العلم و الإيمان عليه الصلاة والسلام.

أتقدم ببالغ شكري وعظيم امتناني إلى أستاذي الفاضل "**عمر برابح** " على قبوله بصدر رحب وصبره على انجاز هذا البحث، ومساعدتي على إتمامه بتوجيهاته ونصائحه القيمة

فله مني كل الاحترام والتقدير.

كما يقودني واجب الاعتراف بالفضل التقدم بجزيل الشكر إلى كل أستاذتي في قسم الفلسفة إلى رئيس الشعبة رياض طاهير، عاشور بن قويدر بن غزالة محمد ،الدوغة محمد، لعموري شهيدة ،عمر حمداوي، كما لا يفوتني أن أشكر كل من الأستاذ **زيغمي أحمد** على نصائحه التي رافقتني طيلة السنوات الجامعية ،فله مني ألف شكر، وشكر خاص إلى الأب الحنون على توجيهاته وتعليماته **الدكتور سعد الله علي.**

"كما اتقدم بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الذين ساهموا في إنجاز هذا البحث وخاصة الأستاذ محمد بن علي جامعة غليزان ،عبد الكريم عنيات جامعة قسنطينة، "مولود علي ازوي جامعة منتوري، وأشكر كل من ساعدني في اعداد هذا البحث واخراجه من الظلام إلى النور.

مقدمة

إذا عدنا إلى مراحل الفلسفة الأولى نجد أنّ هذه الفلسفة كانت تقدم دراسات عامة حول الظواهر والاشكاليات التي تواجهها، إذ أنّه لم يكن هناك فصل لمبحث عن آخر. لكن مع نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث بدأ الانسلاخ بين القضايا الفلسفية ، فأصبحت الفلسفة تقوم بحل كل إشكالية على حدة. ولعلّ من أهم المعضلات التي تعرض لها الفلاسفة هي مشكلة الصلة القائمة بين الجانب الديني، والجانب السياسي إذ يشكل كل منهما أساسا مركزيا في المجتمع .

وقد فرضت هذه الاشكالية نفسها نتيجة الاختلاف بين أسس وقوانين الدين والسياسة، فإذا كانت السياسة ترتكز على ما يقدمه الفرد إلى المجتمع أو ما يعرف بواجب الأفراد اتجاه المجتمع، فإن الدين يتهم بدراسة الجانب الروحي وعلاقة الإنسان بالله. وقد بّين التاريخ أن العلاقة بين الدين والسياسة وخاصة في العصور الوسطى كانت في بدايتها الأولى تمثل صلة وروابط بين كل ما هو ديني مع ما هو سياسي، إلا أن هدف كل منهما في بسط سيطرته على الأخر أدّى إلى عودة الاختلاف بينهما ما وأدى في الوقت نفسه إلى ظهور القديسين والقساوسة الذين عملوا على التخفيف من حدة الصراع ، حيث بيّنوا أن لكل منهما مجاله الخاص وأُسسه الخاصة به، في حين أنّهم عملوا على جعل السياسة خاضعة إلى سلطة الدين، منطلقين من أن السلطة الدينية ذات مصدر إلهي ويجب الخضوع إلى قوانينها دون اعتراض.

وفي العصر الحديث ظهرت هذه الإشكالية مع الفيلسوف باروخ سبينوزا الذي لفت الانتباه إلى ضرورة معرفة ما يقدمه الدين إلى السياسة ، إذ يعتبر سبينوزا أول من أهتم بقضية الدين، حيث بيّن أن الدين هو تجسيد وإدراك لوجود الله معتمدا في ذلك على عدة براهين. وما يميز الفلسفية الدينية السبينوزية هو دمجها للعالم الخارجي مع الله ، منطلقا من فكرة وحدانية الوجود إذ أن كل ما هو موجود يعود في أصل وجوده إلى الله، وأن جميع الموجودات ذات جوهر واحد وقد وضع صنفين للوجود أطلق عليهما مصطلح الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة، حيث ترمز الأولى إلى الله ، والثانية إلى الكون ، أي أن الله هو الذي طبع هذا الكون الذي يعتبره سبينوزا جزء منه أي من لله ، ولعل أهم ما تعرض له سبينوزا في نشر فكره هو اتهامه بالإلحاد مما أدى إلى حرمانه من طائفته اليهودية، وقد توجه في البدء إلى الانعزال عن العالم الذي هو فيه، إلا أن انعزاله لم يدم طويلا فقد تنبه إلى فكرة الانطواء تحت العقيدة المسيحية ، مغيرا اسمه إلى اسم اللاتيني لتجنب الوقوع في اختلاف مع المسيحين ،وكذلك لتظاهر باعتناقه الديانة المسيحية. وقد كان موقف سبينوزا من العقيدتين المسيحية واليهودية موقف الناقد والرفض لما يجري من مخالفات

للدين، حيث أنه بعد دراسته المتعمقة لكلا العقيدتين، توصل في النهاية إلى أن ما يقوم به رجال الدين والكنيسية من أفعال وأقوال مخالفة تماما لما جاء به تعاليم موسى وما جاء به المسيح ، إذ أن الدين أصبح مجرد وسيلة لتحقيق منافع لسلطة الكنيسة وهذا ما أدى سبينوزا إلى رفضه للدين، فبيّن بأن الدين ينحصر في اثبات وجود الله، وعلاقة الإنسان بالله، في حين أن السياسة تتمثل في علاقة الإنسان مع اخيه الإنسان، وأشار سبينوزا إلى أن الدين يمثل عائق أمام التحرر الكفري إذا ما خضع إلى السلطة الدنيوية ولذا فإنه يدعو إلى ضرورة فصل الدين عني الدولة، على اعتبار أن الدين يشكل عائق أمام الحرية الفكرية وعلى الدولة أن تطبق النظام الذي يجسد التحرر الفكري، ويجعل العقل يصل إلى الكمال، وقد بيّن سبينوزا أن أفضل نظام لذلك هو النظام الديمقراطي الذي يجسد مبدا الحرية والذي يطبق مبدا العدالة والمساواة .

لقد تضمنت هذه الدراسة اشكالية محورية، هي : ما طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة في فلسفة سبينوزا؟

تتفرّع عنها مجموعة تساؤلات منها: ما هي مصادر التفكير الفلسفي عند سبينوزا؟ كيف فلسف الدين؟ وكيف فلسف السياسة؟ وإلى أي مدي يمكن اعتبار الدين حاجزا أمام الحرية الفكرية؟ هل يكمن القول أنّ الديني منفصل عن السياسي؟ وهل يوجد اتصال بين الجانب الديني والجانب السياسي؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات، تعيّن أن تكون خطّة البحث كالآتي:

أوّلا :المقدمة، وهي عبارة عن مدخل عام لموضوع البحث، يتناول أهم نقاط البحث وتحديد الموضوع كما أنها تتضمن الاشكالية الرئيسية والتساؤلات الفرعية، وكذلك تتضمن المنهج الذي تم الاعتماد عليه في هذه الدراسة.

ثانيا: الفصل الأول وعنوانه السياق الفكري والتأسيس الفلسفي ، وتندرج تحته عدة مباحث منها المبحث الأول ويعالج الدين والسياسة عند فلاسفة العصور الوسطى ،أما المبحث الثاني فيتضمن فلسفة سبينوزا والعقلانية الديكارتية ،أما المبحث الثالث يتضمن مفهوم الطبيعة البشرية عند سبينوزا.

ثانيا: الفصل الثاني عنوانه، طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة في فلسفة سبينوزا، وقد اعتمدنا على المباحث التالية في هذا الفصل وهي المبحث الأول ،فلسفة الدين عند سبينوزا والذي تناول وجود الله ، وموقف سبينوزا من العقائد الدينية المسيحية واليهودية، أما

المبحث الثاني فقد تطرقت إلى معالجة قضية السياسة في فلسفة سبينوزا ، وقد تناول المبحث الثالث علاقة الدين بالسياسة في فكر سبينوزا.

ثالثا:ا لفصل الثالث فلسفة سبينوزا في ميزان النقد: وقد تضمن هذا الفصل المباحث التالية ، المبحث الأول وعالجت فيه مؤيدي فكر سبينوزا ، أما المبحث الثاني فقد تطرقت فيه إلى معالجة معارضي فلسفة سبينوزا، وفي المبحث الثالث فقد بينت فيه أثر فلسفة سبينوزا على الفكر الحديث والمعاصر.

رابعا: خاتمة، وتندرج فيها أهم النقاط والنتائج المتوصل اليها من خلال تحليل الموضوع.

أما عن المنهج المعتمد فقد اتبعت المنهج التحليلي بغية تحليل موضوع البحث، وابراز دور كل من الدين والسياسة في المجتمع والمنهج النقدي قصد وضع فلسفة سبينوزا في ميزان الفلاسفة الآخرين.

وقد دفعتني مجموعة من العوامل لمعالجة هذا الموضوع منها، الميل الذاتي إلى فكر سبينوزا ،والرغبة في التعمق فيه أكثر . عوامل موضوعية تتمثل في، محاولة تسليط الضوء على فلسفة سبينوزا ، وإظهار مدى تأثير فلسفة سبينوزا في فلسفات العصر الحديث والمعاصر، وكذلك قلة الاهتمام بهذا الفيلسوف، وخاصة في مجال السياسة ، وكذلك قلة الدراسات على فكر هذا الفيلسوف وخاصة الدراسات العربية، إذ يوجد مرجع واحد باللغة العربية يتضمن فكر هذا الفيلسوف ويتمثل في مرجع للدكتور فؤاد زكريا يحمل عنوان اسبينوزا.

أما عن الأهداف المرجوة من هذه الدراسة فتتمثل في لفت الانتباه إلى فكر سبينوزا وإعادة إحياء هذه الفلسفة التي تتضمن أفكار وأراء نحن بحاجة اليها ، وكذلك إزالة الغموض على فكرة الالحاد التي اتهم بها سبينوزا فالدراس والمتعمق في هذه الفلسفة يجد بأن لسبينوزا إلها ، وكذلك من الاهداف المراد تحقيقها من خلال هذا البحث اظهار مدى اهمية فكر هذا الفيلسوف.

وإظهار مدى تأثير فلسفة سبينوزا في فلسفات العصر الحديث والمعاصر، وكذلك قلة الاهتمام بهذا الفيلسوف وخاصة في مجال السياسة .

وقد اعتمدت على عدة مراجع ومصادر ومن أهم المصادر التي اعتمدت عنها رسالة في اللاهوت والسياسة والتي تضمنت فكرة وجود الله بتفصيل وكذلك عالجت السياسة وأهم مقومات الدولة ، وكذلك كتاب الأخلاق الذي يتضمن الدين

والسياسة، أما عن المراجع باللغة العربية فقد اعتمدت على مرجع اسبينوزا لفؤاد زكريا، وكذلك كانت هناك مراجع اجنبية ودراسات سابقة لكن بشكل محدود.

وبطبيعة الحال فان لكل بحث معوقاته وصعوباته، ولعل أهم هذه المعوقات التي واجهتني في هذا اعداد هذا البحث ندرة المراجع باللغة العربية تخص فكر هذا الفيلسوف ، ويرجع ذلك إلى النظرة الخاطئة التي يحملها مفكري العرب على فكر سبينوزا وخاصة فكرة الإلحاد والتطرف، صعوبة ترجمة المراجع من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وأما عن المضمون فصعوبته تكمن في تفكيك وفهم هذا الفكر ، والذي غالبا ما كان يتميز بالغموض يحتاج إلى دراسة تحليلية فلسفية عميقة

الفصل الأول: فلسفة سبينوزا : السياق الفكري والتأسيس الفلسفي

المبحث الأول: الدين والسياسة عند فلاسفة العصور الوسطى

المبحث الثاني: فلسفة سبينوزا والعقلانية الديكارتية.

المبحث الثالث: مفهوم الطبيعة البشرية عند سبينوزا

الفصل الأول: فلسفة سبينوزا : السياق الفكري والتأسيس الفلسفي:

المبحث الأوّل : الدين والسياسة عند فلاسفة العصور الوسطى:

قد واجه **الفلاسفة المدرسيون*** في العصور الوسطى مشكلة ذات طابع ديني–فلسفي تتمثل في علاقة الدين بالجانب السياسي، علما أنّ "العقيدة الدينية هي جوهر المسيحية والديانة اليهودية وموضوعهما الأهم، أما المسائل الاجتماعية فهي تابعة للعقائد وملحقة بها وهما بذلك يهتمان بالجانب السياسي وتحاولان حل مشكلاته"[1].

لقد كان ظهور المسيحية في المجتمعات الخاضعة لسيطرة الإمبراطور الروماني معاصرا لبدايات الانحلال في السلطة الرومانية ونشوب صراع بين مجتمعاتها وشعوبها، ومعاناة مجتمعاتها من تدهور أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وفي ظل هذه الاضطرابات قدمت المسيحية نفسها كعقيدة دينية سماوية معلنة في ذلك صرحًا جديدا للحياة الإنسانية. أعلنت المسيحية في بدايتها عن اشتراكها مع **الرواقية**** في عدة أفكار وتتمثل هذه الاتفاقية في الاعتقاد بأولوية الحقوق الطبيعية وتقديمها على أية حقوق أخرى، وكذلك الإيمان بالحرية والمساواة الطبيعية على أنهما أساسًا للحياة الإنسانية، وجعل الأنظمة الطبيعية قاعدة للحياة في المدينة الإلهية، ولكّن المسيحية لم تذهب إلى ما ذهب إليه الرواقيون من دعوة إلى العزلة ، ومقاطعة كل ما يتعلق بالجانب السياسي، أي أن من شروطها (الرواقية) هو الانفصال عن كل ما هو داخل في شؤون السلطة الحاكمة. فالمسيحية رفضت هذا الشرط معلنة على ضرورة وجود نظام سياسي ، حيث عملت في البدء على ربط علاقة بين الأفراد والمجتمع، وفقا للمعتقدات الدينية وكذلك وفقاً لنظام سياسي محكم. وكان ظهور الدين كعقيدة منفصلة عن ما هو سياسي في بداياته الأولى، إلا أن هذا الأمر لم يمنع آباء الكنيسة من العمل على وضع حد لهذا الانفصال، وسعوا جاهدين إلى ربط كل ما هو ديني بما هو سياسي

(*)– **الفلاسفة المدرسيون** :هي فلسفة المدارس والجامعات في القرون الوسطى ،التي بدأت من القرن العاشر وامتدت حتى القرن السادس عشر واعتمدت على ارسطو بوجه خاص، محاولة التوفيق بين فلسفته والتعاليم الدينية ،ومن أشهر ممثليها توما الأكويني في القرن الثالث عشر .ابراهيم مدكور المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة،(دط) 1983،ص173.

1– عامر حسن فياض ،علي عباس مراد ،مدخل إلى الفكر السياسي القديم والوسيط ،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة فاريوس (1ط) 2011 ،ص332.

(**)– **الرواقية**: إحدى الفلسفات التي شاعت في الفترة الهيلنسية،–الرومانية–أسسها زينون ،في نهاية (ق 4 ق م)وتستمد اسمها من الرواق وهو بهو ذو أعمدة حيث كان يعلم في أثينا، جميع النظريات .فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار العلم، بيروت، (د ط)،(د ت) ص 218.

حيث نشرت المسيحية جملة من الأفكار من قبل رجال الدين، من أجل ترسيخها في عقول الأفراد، حيث عملوا على إقامة الهيكل المؤسس للكنيسة الذي يجبر بذلك السلطة السياسية على الخضوع وبشكل تام إلى كل ما تشير إليه سلطة الكنيسة على اعتبار أنها من مصدر إلهي لذلك يجب عليها (السلطة الدنيوية) طاعة قوانين الكنيسة والخضوع التام لكل القوانين التي تسنّها ولا يمكن لها معارضتها، وفي هذا الاتجاه نجد القديس **بولس**(saint (Bulos*قد بين "أن العقيدة المسيحية لا تملك نظاما اجتماعيا خاصا بها، وكل ما تملكه المسيحية هو أسلوب مسيحي تسعى من خلاله إلى تحقيق أهداف اجتماعية، وتقديم كل الواجبات داعيا بذلك إلى ضرورة طاعة السلطة الحاكمة، حيث يقول: في هذا "على كل فرد أن يخضع للسلطات العليا إذ لا توجد سلطة ليست من الله، وكل السلطات القائمة هي من إرادة الله"[1].

وقد بين المؤرخ سباين أنّ "الفكر السياسي المسيحي كان في البدء قد تبنى **نظرية الحق الإلهي***، فالحكام هم مبعوثون من الله ومهمتهم تنفيذ الأحكام ، إذ كانت فكرة انفصال كل ما هو ديني عن ما هو سياسي ميزة ميزت الفكر السياسي في المراحل الأولى بما يناسب وثنية الحاكم السياسي الروماني، وجمعه في شخصية بين السلطة الدينية والدنيوية من جهة ، وواقع الكنيسة كمؤسسة اختيارية الانتماء والولاء من جهة أخرى ،فقد فرضت تغيير تلك المعطيات تغييرا في الفكر السياسي المسيحي. وبعد أن اعتنقت الدولة الرومانية العقيدة المسيحية واعترفت بالكنيسة ومسؤوليتها عن شؤون هذه العقيدة ، وهو ما فرض على آباء الكنيسة أن يعترفوا بالوجود المستقل للمؤسستين الدينية والدنيوية ، معلنة بذلك ترابطهما وتكاملهما وجوديا ووظيفيا"[2].وقد كانت العلاقة بين الدين والسياسة في المراحل الأولى تتميز بالتداخل والتكامل والترابط ، حيث أن الكنيسة قدمت اعترافا صريحا بوجود سلطة الدولة وهذا ما ساعدها على نشر أفكارها كما دعت إلى وجوب الخضوع إلى أوامر السلطة السياسية، إلا أن هذا التعايش السلمي بينهما لم يدم طويلا، حيث أصبحت كل واحدة منهما تتنافس على السلطة وتسعى إلى بسط سيطرتها على

(*)- **القديس بولس**: راهب ولا هوتي من الكنيسة، الملكية ،من القرن الرابع عشر ميلادي ، زار بلاد الروم والفرنجة وعين اسقفا على صيدا كان متمكنا من الفلسفة الأرسطية ،فاستخدمها في محاورته مع المسلمين دفاعا عن معتقدات النصرانية (ينظر: جورج طرابيشي معجم الفلاسفة، دار الطليعة ، بيروت ، ط3، ص 208).

1 – عامر حسن فياض، علي عباس مراد ،المرجع السابق،ص358

(**)- **نظرية الحق الإلهي**: هي نظرية تمخضت عنها عقلية الكنيسة بعد صراع مرير مع الفكر الروماني وغيره مما كان الحاكم فيه قد جعل نفسه الها والجميع له خدم وعبيد ،وسلطته مطلقة. بوابة المدينة،.www.madinagate.com

2 – عامر حسن فياض، علي عباس مراد، المرجع السابق ص ن.

الطرف الآخر ،وقد تأثرت الكنيسة بهذا الصراع حيث فقدت طابعها الديني وتحولت أفكارها إلى اطماع مادية متخلية بذلك عن طابعها الروحي، مما أدى إلى انقسام المجتمع إلى قسمين: قسم كنسي وقسم يمثل السلطة السياسية . إن هذا الصراع كان له أثر على الجانب الفكري، وكان من نتائجه ظهور كوكبة من المفكرين والقساوسة الذين كان هدفهم الحقيقي و الباطني هو إخضاع كل أفراد المجتمع بما فيهم السلطة الدنيوية إلى سيطرة سلطة الكنيسة ،وإن كانوا يتظاهرون أي :رجال الدين ،بأن هدفهم هو تحقيق التعاون والعدل والمساواة بين أفراد المجتمع، وأن يبقى لكل من الجانب الديني والسياسي على علاقة ترابطية بأن يقدم كلاهما خدمات للآخر ويعمل كل منهما في مجاله الخاص به دون التدخل في شؤون الطرف الأخر، ولعل من أبرز القديسين الذين دعوا إلى تحقيق ذلك التعاون المشترك بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية نجد:

1/ **القديس أمبروز** saint amroise(**346–395م**): دعا إلى الإعلاء من شأن السلطة الكنيسية والتأكيد على استقلالها في المسائل الروحية والأخلاقية عن سلطة الدولة، حيث أشار مؤرّخ السياسة جورج سباين أن أفكار أمبروز تميزت بدعوتها القوية إلى استقلال الكنيسة، وقد تمكن القديس أمبروز من أن يحدد طبيعة اختصاص الكنيسة والدولة وبين نوع سلطتهما وطبيعة علاقتهما التفاعلية، حيث كان موقفه رافضا لمطالب الرومانيين الوثنيين التي كانت تسعى إلى إعادة وضع تمثال النصر، بعد أن أزيل من مكانه، حيث كتب يقول إلى الإمبراطور فالنتيان:" إنه كما يجب على الرومان جميعا أن يقدموا خدماتهم العسكرية إلى مالكهم، فكذلك يجب على الإمبراطور أن يقدم خدماته لله، وقد دافع أمبروز عن الكنيسة ومقدّساتها بوصفه رجل دين ودعا إلى ضرورة احترام مقدسات الدين، وبالرغم أنه كان من رجال الدين إلا أنّ ذلك لم يجعل منه رجلًا معارضا لسلطة الدولة ورفضها بل على العكس من ذلك دعا إلى احترام نظام الدولة، وفي الوقت نفسه دعا إلى الاحتجاج عن السلطة السياسية إذا لزم الأمر ذلك"[1]

(*)– **القديس امبروز**: ولد في(346–395م) نشأ في أسرة نصرانية ،شديدة الورع ولكنه لم يقبل المعمودية، وقد وزع أملاكه على الكنيسة ، والفقراء وكرس حياته، لممارسة وظيفته ،بإخلاص ودبلوماسية ،وقد كافح الوثنية وكتب ضد الاريوسيين، رسالة في تجسد الرب، وحدد في مؤلفه اللاهوتي في الإيمان المبادئ الأساسية التي ينبغي أن تبنى عليها العلاقة بين الكنيسة والدولة، وتوفي 395م. (ينظر جورج طرابيشي ، المرجع السابق ، ص،39).

1– نقلا عن: عامر فياض، عباس علي مراد، المرجع السابق ص373.

2 /القديس أوغسطين*saint Augustin (354-430م): تعرّف القديس أوغسطين على العقيدة المسيحية من خلال" قراءته للقديس أمبروز فوجدها مذهب يحتوي على الحب واللطف ، وعلى أنها توجد بها فكرة الكلية وهي فكرة الكنيسة الأبدية التي بدأت بآدم وانتهت بملكوت الله، وأنها طريق يصل به الإنسان إلى سدرة المنتهى" [1]. تطرق أوغسطين إلى فكرة الألوهية ويرجع ذلك إلى اتباعه للمسيحية حيث أرجع فكرة وجود الله إلى العناية الإلهية، فهو يرى أنه لولا عناية الله و لطفه لعجز عن إدراك الله، وقد ربط فكرة وجود الله بجملة من المعارف المتواجدة في الكون حيث توجد حقائق ثابتة استطاعت النفس البشرية أن تصل إليها، ويرجع أصل هذه الحقائق إلى الله، أما في الإطار السياسي فإنه يرى أنه لا يهمّ أن يكون نوع الحكم ملكيا أو جمهوريا أو ديمقراطيا، المهم أن يكون الحاكم عادلا، وفي رأيه أنّ العدالة الحقيقية هي المتجسدة في الشكل العام الذي نادى به المسيح وهي مدينة الله، ولاستمرار الدولة يجب عليها تطبيق العادلة العادية الدنيوية، وقد ميّز أوغسطين بين نوعين من السلطة سلطة زمنية والتي تمثل الدولة، وروحية والتي تمثل الكنيسة، ويرى أنه لابد من أن تخضع السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية وهي الفكرة نفسها التي نادى بها آباء الكنيسة بقولهم" ينحني الملك رأسه تحت يد الكاهن ". وقد أيّد أوغسطين هذا القول لأن الكنيسة في رأيه شاملة للكون وحقائقه، وهي مستقرة في نظامها عكس السلطة الزمنية التي تتميز بالتغير"[2] .

ميز أوغسطين بين نوعين من المدن: المدينة الإلهية والتي تتمثل في الكنيسة والمدينة الأرضية والمتمثلة في الدولة، وكان يعمل على إزالة الخلاف القائم بين المدينتين وقد وضّح بأنه لكل منهما مجاله الخاص ،فالدولة تهتم بالمجتمع وكيف تقوده إلى ما فيه من خير وصلاح معتمدة في ذلك على ما أتيح لها من قوة السلطة والثروة، أما المدينة الإلهية فمهمتها الاهتمام بالمجتمع السماوي وتعمل على تحريك دوافعه الدينية معتمدة في ذلك على تحقيق الطمأنينة النفسية والسلام والخلاص، ويرى أوغسطين أنّ بداية تأسيس دولة المدينة كان من خلال خلاف لأوامر الله، لأنها في نظره مؤسسة من قبل الشيطان، أما المدينة الإلهية هي التي أسسها المسيح من خلال طاعة الله ،ومع ذلك فإن أوغسطين قد عمل على إزالة الاختلاف وتجسيد الترابط بين المدينتين، إلا أنّه يفضّل في النهاية مدينة الله لأنها تتميز بسيادة الخير والسعادة القصوى، وهذا لم يجعله معارضا لمدينة الدولة ،وإنما أكّد أنّ الإنسان

(*) **القديس أوغسطين**: أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ولد في طاجيسطا سوق أهراس حاليا بنوميديا عام354م، ومات في ايبونا، درس أولا في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى مادورا، ليدرس الخطابة، أولع بلاتينية والأدب اللاتيني، ولكنه كان يكره اليونانية، اقتنى منها سوى بعض المبادئ الأولية اللازمة لمقارنة نص مترجم بنص أصلي .(جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص117).

1- الشيخ كامل محمد عويضة، الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1993 ص ص 35، 47.

2- جورج سعد، تطور الفكر السياسي ،في العصور القديمة والوسطى ،منشورات الحلبي الحقوقية لبنان (د ط) 2000، ص ص 14، 148.

عند حصوله على المدينة السماوية فإنّه يجب عليه أن يبحث عن المدينة الأرضية، وقد جعل أوغسطين السلطة السياسية مرتبطة بالإرادة الإلهية وتحقيق هذا الترابط انطلاقا من مستويين: "المستوى الأوّل أن كل سلطة مصدرها الله فمن الله وإرادته ينبثق مبدأ السلطة، والمستوى الثاني وجود علاقة من نوع مختلف بين السلطة وإرادة الله كون الله هو الخالق والمنظم للعالم، فمن المستحيل أن يترك مماليك الأرض خارج قوانينه، أمّا عمل السلطة السياسية فيجب أن يقوم على شرط الترابط بين الكنيسة والدولة حيت تعمل الكنيسة على توجيه الدولة إلى الحياة الآخرة، وتساعد الدولة الكنيسة على نشر معتقداتها وكيفية الوصول إلى الناس، وترسخ فكرة الخلاص والنجاة الأبديتين في عقول الناس"[1]. وبهذا يكون أوغسطين قد نادى بفكرة وجود علاقة ترابط بين ما هو سياسي وما هو ديني مؤكد في الوقت نفسه أنّ كل القوانين ترجع في أصلها إلى مصدرها الأوّل وهو الله. هذا وقد تطرق القديس **توما الإكويني*** saint Thomas D'aquis (1224-1274م) إلى الفكرة نفسها وبين بأنه يوجد نوعين من السلطة ،سلطة ذات مصدر إلهي وسلطة ذات مصدر واقعي ، وهي التي تصدر عن طريق اختيار حاكم يتولى السلطة، ويركز (توما)على السلطة من ناحية هدفها ومبتغاها ، وهو بهذا يهمل مصدر السلطة فالهدف منها هو تحقيق الخير الأسمى، وقد حدد صلاحيات كل من السلطتين الروحية والزمنية وخص البابا وحده بحرية اتخاذ القرار فهو يملك الحق في التدخل في الأمور السياسية وقد حقق توما من خلال أفكاره نوعا من التكامل والتوازن فكانت العلاقة القائمة بينهما علاقة تداخل وتكامل إذ لا يمكن فصلهما عن بعضهما لأن السلطة الإلهية تمثل الجانب الروحي للإنسان ، في حين أنّ السلطة الواقعية تمثل الجانب الجسدي للإنسان، حيث أنّ من أهمّ الأهداف التي تسعى الكنيسة إلى تجسيدها هي إيصال الناس إلى النجاة، في حين أن هدف الدولة هو تحقيق الحياة الصالحة والسعيدة والعادلة للناس، حيث أرجع توما الأكويني أنّ" تحقيق هذه الأهداف هو من عمل القسيس لا من عمل الحاكم ففي رأيه أنّ النبي هو الملك، وهو الذي يجعل من رجال الدين أن يتدبروا شؤون مملكته الدنيوية، ويجب أن يخضع الحاكم إلى أوامر البابا"[2] .

من كل ما سبق نصل إلى فكرة أساسية تنصّ على أنّ الدين والسياسة في العصور الوسطى يشكلان حلقة تواصل وترابط إذ لا يمكن فصل الدين عن السياسة، وهذا ما جاء في العقيدة المسيحية، حيث كان الدين والسياسة يقومان على مبدأ

1 – عامر حسن فياض، عباس مراد، المرجع السابق، ص 382.

2 – المرجع نفسه ص ص 406، 407.

(*)– **توما الاكويني** : فيلسوف ولاهوتي من أصل إيطالي كتب باللاتينية ولد ما بين نهاية 1224، وبداية 1225،في قصر روكازيكا على مقربة من اكوينيو في إيطاليا الجنوبية ومات في سنة 1274 لقب بالمعلم الجامع للكنيسة وكذلك بالمعلم الملائكي، والأحداث التي تتألف منها حياته أنه أرسل إلى دير القديس يعقوب، وهو أكبر مركز عقلي للرهبانية . (ينظر: جورج طرابيشي، المرجع السابق ، ص 241).

التعايش السلمي وكل منهما يخدم الآخر ،إلّا أنّ هذا لم يدم طويلا فقد دخلا في صراع حول السيادة، مما أدّى إلى وقوع اضطراب على الجانبين فكل منهما يريد بسط نفوذه وسيطرته على الآخر ونتيجة ذلك كان ظهور كوكبة من المفكرين والقديسين الذين دعوا في فكرهم إلى ضرورة التوحيد وتجسيد الصلة بين الدين والسياسة من أجل تحقيق المصلحة العامة، إلا أنّ معظم رجال الدين انطلقوا من فكرة إقامة صلة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية شرط أن تخضع السلطة الزمنية إلى أوامر وأحكام السلطة الروحية، معتقدين بذلك أنّ مصدر هتين السلطتين من الله ،ولذلك يجب طاعته وتنفيذ أحكامه.

المبحث الثاني: فلسفة سبينوزا والعقلانية الديكارتية:

لم تكن فلسفة **سبينوزا*** Spinoza(1632-1677م) منفصلة عن سابقاتها من الفلسفات العقلانية، التي كان لها تأثير واضح على الفكر في العصر الحديث. فكانت معظم أسس فلسفة **سبينوزا** تعود في أصلها إلى تأثّره بالفيلسوف **ديكارت****Descartes (1596-1604م) حيث يمثل ديكارت في نظر الكثير من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين بأنه أب للفلسفة الحديثة، وهو أوّل من أسّس الفكر الحديث، ويتجلى ذلك من خلال تقديمه لمجموعة من الأعمال المهمة، منها قدّم نقدا للآراء المتوارثة وتأسيسه لمدرسة الأدب الفرنسي الكلاسيكي ، كما أنّه بين فكرة توحيد البشر في العقل حيث يقول: "إذ بخصوص العقل والصواب لا سيما وهو الشيء الوحيد الذي يجعل منا بشرا ويميزنا عن الحيوانات فإني أحبذ الاعتقاد بأنه تام في كل منا متبعا في ذلك الرأي السائد لدى الفلاسفة اللذين يقولون لا تفاوت إلا بين الأعراض لا بين صور أفراد النوع الواحد أو طبائعها".[1] إلّا أن هذه الفلسفة لم تكن مختلفة عن سياق الفلسفات السابقة إلا من خلال المنهج المعتمد عليه .وقد أشار ديكارت إلى أن منطق **أرسطو** ***Aristote (384-322ق،م)لا يوصل إلى اليقين المطلق .

---

1 - رينه ديكارت، حديث الطريقة، ترجمة عمر الشارني، مركز دارسات الوحدة العربية ط1، 2008، ص44.

(*)- **سبينوزا**: ولد سبينوزا في امستردام في 24 نوفمبر 1632، وقد سمي عند ولادته باروخ وكان من أسرة إسبانية يهودية مهاجرة تدعى المارانو وهم يهود إسبانيا الذين اضطروا تحت الاضطهاد إلى إخفاء دينهم الحقيقي واعتناق الكاثولكي مؤقتا. كان أبوه مخائيل تاجر ميسور الحال كما كانت له مكانة في الجالية اليهودية المشهورة بامستردام، وقد تلقى سبينوزا تعليمه الأول في المدرسة التلمودية المحلية، لم يكن سبينوزا منعزلا عن الحياة بل كان محبا لها ومهتما بكل ما يجري في مجتمعه ،حريصا على المشاركة في شؤون مجتمعه، إلا أنه أصيب بمرض جعله يفقد حياته وهو في أول طريقه وكان ذلك في 21فبراير1677،تاركا ورائه مجموعة من المؤلفات، منها رسالة في إصلاح العقل ، علم الاخلاق، رسالة في اللاهوت والسياسة. (ينظر :جورج طرابيشي ، المرجع السابق ص ص 359، 360).

(**)- **ديكارت** :هو فيلسوف فرنسي رياضي وهو أول فيلسوف محدث ،ولد في لاهاي عام 1596،في سنة 1604 أرسله والده إلى معهد لافليش الذي تأسس لتوّه، وكان الآباء اليسوعيون، هم الذين يتولون إدارته، وقد لقنوه مبادئ الإيمان واللاتينية، والتاريخ والبلاغة وعلى الأخص الفلسفة الأخلاقية والمنطق، والرياضيات وطبيعيات أرسطو، والميتافيزيقا، وقد توفي سنة1650، تاركا مجموعة من المؤلفات منها، مقال عن المنهج، قواعد تدابير العقل، تأملات ميتافيزيقيا.(جورج طرابيشي المرجع نفسه، ص ص299، 303).

(***)- **أرسطو**:(384-322ق م) فيلسوف وعالم ومؤسس علم المنطق ،وعدد من فروع الأخرى للمعارف والعلوم كان ابنا لطبيب باسطاغير ،في شمال اليونان كان عضوا في أكاديمية أفلاطون مدة عشرين عاما، وغادرها لما توفي أفلاطون وقد دعاه فيليب ملك مقدونيا إلى مملكته ليشرف على تعليم إسكندر ابن الملك ،ثم عاد أرسطو إلى أثينا ليؤسس مدرسة جديدة، توفي عام 322ق م تاركا مجموعة من المؤلفات والنظريات منها، المقولات ، الصورة والهيولة ،المنطق، تصنيف العلوم ، الميتافيزيقا، الأخلاق. (ينظر: خلف الجراد، معجم الفلاسفة المختصر ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 2007م ،ص ص 15، 16).

ويشير أبو الفلسفة الحديثة التي تمثل فلسفته حدا فاصلا بين الفلسفة القديمة والحديثة ،وذلك من خلال المنهج الذي اعتمد عليه (ديكارت) والذي يعرفه على أنه " القواعد الوثيقة والسهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يأخذ الباطل على أنه حق وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها دون أن تضيّع جهوداً غير نافعة ،بل وهي تزيد ما للنفس من علم التدريج "[1]. وقد اتبع ديكارت هذا المنهج، الذي له صلة بالعلم فهو بمثابة الأرغانون الجديد، وقد توصل إليه ديكارت من خلال تطور عقله ونضجه، وترجع فكرة اتخاذ منهج وجعل له قواعد يسير عليها إلى جملة من الأفكار السابقة التي اطّلع عليها فهو كان أحد" تلامذة اليسوعيين والمعروفين بالنّظام والقواعد، وهم كذلك معلمو نظام لا معلمو السلوك والأخلاق فقط" . [2]

ويعتمد المنهج الديكارتي على مجموعة من الأسس منها البداهة والاستنباط ، وتتمثل البداهة في الرؤية الذهنية المباشرة للأشياء ،وهي نوع من المعرفة المباشرة ينتقل فيها العقل من شيء معلوم إلى شيء مجهول، وعدم إدراك الشك في البداهة يعود إلى سبب الوضوح والتمايز، والفكرة الواضحة هي التي لا تحتاج إلى تفسير أمّا الفكرة المتمايزة هي التي يبقى العقل يميز بينها وبين غيرها من الأفكار، أمّا قاعدة الاستنباط فتتمثل في أنّها عملية عقلية ينتقل فيها العقل من فكرة تكون بديهية إلى فكرة تكون جديدة ، وتكون نتيجة لازمة لها، وكذلك للمنهج قواعد أخرى تتمثل في قاعدة اليقين والبداهة، ويقصد بها " أن لا أتلقى على شيء على أنه حق ما لم يتبين بالبداهة أنه كذلك، أي أن أعني بتجنب التعجل والتشبث بالأحكام السابقة، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتميّز لا يكون لديّ معهما أي مجال لوضعه موضع الشك" [3].

حينما انتهت شكوك ديكارت المطلقة منها والمنهجية بواسطة ما يعرف **بالكوجيتو*** الديكارتي "أنا أفكر أنا موجود"(cogito ergo sum)، وهو القانون الذي استطاع أن يثبت حقيقة ذاته ووجوده ،انتقل بعدها إلى محاولة إثبات وجود العالم الخارجي، ومنه إلى إثبات أن لهذا العالم خالق أوجده وهو علة في وجود كل الموجودات، حيث يقول في هذا "أما الفكرة التي لنا عن الله فهي لا تأتي منا، إذن الله موجود لم تبقى إلا فكرة الله وحدها هي التي يجب أن ننظر هل فيها شيء لم

1 – ديكارت ،مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، 1985،ص 144.

(*)– **الكوجيتو** : لفظ يوناني يعني، أنا أفكر، ولكن مع إضافة لام التعريف، يقصد به حجة ديكارت يستدل بالفكر على جوهرية النفس ،فؤاد كامل وآخرون، المرجع السابق ،ص 525.

2– نجيب بلدي ، ديكارت، دار المعارف، مصر ،ط2، 2004، ص 61.

3 – Descartes.discour.de la. Méthode .ouvrage .présenté .par .Omar mehibel. enag .editions. algeria.1991. bag .xv

يصدر عني، وأقصد بلفظ الله جوهر لا متناهيا أزليا منزها عن التغيير قائما بذاته محيط بكل علم ، قادر على كل شيء خلقني أنا وخلق جميع الأشياء الموجودة"[1].

وهكذا كان إثبات وجود الله عند ديكارت مخالف لما اتبعه الفلاسفة من قبله حيث أنّ فكرة الألوهية ليست مأخوذة من الحس ولا من اصطناع ديكارت وإنما مأخوذة حسب رأيه من الفطرة أو الطبيعة البشرية، ويقول في هذا "عندما أتأمل ذاتي فإني لا أعرف فقط أني كائن ناقص متعلق بغيري وأسعى دوما إلى ما هو أفضل، بل أعرف في الوقت نفسه أنّ الكائن الذي يتعلق وجودي به له جمع من الكمالات التي أطمح إليها وهو ينعم بها وهو الله "[2] أكّد ديكارت من خلال هذا القول بأن صفة الكمال تخص الله وحده لأن وجوده لا يحتاج إلى غيره بل هو علة ذاته بذاته، وقد اعتمد ديكارت في إثبات **وجود*** الله على عملية رياضية منظمة حيث انطلق من الأدنى الذي هو الذات الإنسانية وصولًا إلى الأعلى الذي هو **جوهر**** الله، ولعل ما يميز الفلسفة الديكارتية هي" احتوائها لمنهجية عامة تتضمن الرياضيات، بمظاهرها حيث يتواجد تطبيقها في الرياضيات في حد ذاتها، وهي كذلك فرع من الفيزياء، التي تعتبر مثل الهندسة"[3].

إن الميزة الأساسية التي أثّرت في فلسفة سبينوزا هي اعتماد ديكارت على المنهج الاستنباطي في مجال المعرفة وتأكيد هذا الأخير أنّ **الميتافيزيقا***** التي أنشأها مطابقة لقواعد اليقين الاستنباطي، وقد اعتمدت حقيقتها على مجرى ذلك المنهج، وسار سبينوزا على ذات المنهج بامتياز من خلال وضعه و تجسيده في كتابه "علم الأخلاق" المبرهنة عليها في نظام هندسي ونشر هذا الكتاب بعد وفاته ويحتوي على نظام دقيق حيث بدأ بتعريف شامل للقضية ، وكان سبينوزا يهدف من خلال هذا العمل إلى تفسير الخير بالنسبة للإنسان ، وكذلك شرح العواطف والانفعالات وطبيعة الحرية الإنسانية ، حيث يرى سبينوزا "أنه يوجد نوع

1- رينه ديكارت ،تأملات ميتافزيقية ،في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج ،منشورات عويدات بيروت ، باريس،ط4 1988 ص34.

2- جنفيان روديس لويس، ديكارت والعقلانية ، ترجمة عبده حلو، منشورات عويدات بيروت ط4، 1988،ص،91.

(*)**– الوجود:** تحقق الشيء في الذهن أو في الخارج، ومنه الوجود المادي أوفي التجربة، والوجود العقي أو المنطقي، يقابل عند المدرسين الماهية أو الذات باعتبار أن الماهية هي الطبيعة المعقولة للشيء، وأن الوجود هو التحقق الفعلي له. (إبراهيم مدكور ،المرجع السابق ص 211.

(**)– **الجوهر**: يطلق الجوهر عند الفلاسفة على معاني منها الموجود القائم بنفسه حديثا كان أو قديما، ويقابله العرض، ومنها الذات القابلة لتوارد ،الصفات المتضادة عليها . (ينظر: جميل صليبيا ، المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني ،لبنان (دط) 1982م ج1،ص424.

(***)**الميتافزيقا**: هو علم المبادئ العامة، والعلل الأولى ويسمى الفلسفة الأولى أو العلم الإلهي. إبراهيم مدكور المرجع السابق ص197.

3 - Jean lechat, discours de la méthode, descartes, nathan, France, 1996,page 11

واحد للجوهر وهو الذي يجري تصوره من خلال ذاته، وهو يهذا يخالف ديكارت القائل بأن هناك نوعان للجوهر جوهر الذهن وجوهر المادة" [1]. ويتوقف وجودهما مع بعضهما البعض ،هذا وقد نشر سبينوزا كتابه الوحيد والذي كان يحمل اسمه <مبادئ ديكارت الفلسفية >وقد أخذ سبينوزا في مؤلفاته الأولى النتائج المنطقية المترتبة على مقدمات ديكارت وتابعها حتى النهاية حيث قال: **ليبنتز** liebnitz* (1646-1716م)" كل ما فعل سبينوزا أنّه حصد ما زرعه ديكارت وكان يهدف من قوله هذا إلى زرع فكرة الحتمية السببية ،لأن ديكارت قد وضع أن المادة تتلبس جميع الصور الممكنة، إذا نظرنا إلى طبيعتها وهذا ما جعل سبينوزا يؤكد على أنه يوجد جوهر واحد وهو الله ،وأن الأشياء الأخرى ليست سوى صور مختلفة لهذا الجوهر"[2].

أثبت سبينوزا بأنّ الجوهر واحد ويتمثل في الله ويعني أن الله أوجد ذاته بذاته، وهو غير متناه على عكس الموجودات الأخرى التي تتميز بتناهي، وقد أعاد النظر في تعريف الصفات وذلك لأن تعريفها يكشف ماهية الجوهر، و اعتمد على أسس اليقين المأخوذة من الطريقة الديكارتية. وهكذا تمثل فلسفة ديكارت المنطلق الأوّل لفلسفة سبينوزا فكانت بمثابة الأسس التي سار عليها سبينوزا في بداية تأمله الفلسفي، وخاصة في المنهج الذي اعتمد عليه، فقد كان بمثابة الطريقة الصحيحة التي بنى عليها سبينوزا نهجه الفكري، إلّا أنه أدخل عنها تعديلات تتمثل في قوله بأن الجوهر واحد يتمثل في وجود الله ولا يمكن القول بفصل المادة عن جوهر الذهن ، لأن الجوهر ثابت لا يتغير وإن الموجودات لها جواهرها ترجع في أصلها إلى الجوهر الأول وهو علة في وجودها وهو الله، وقد خالف ديكارت في كيفية إثبات الله، حيث انطلق سبينوزا من إثبات الله أولا ثم إثبات باقي الموجودات الأخرى في حين أن ديكارت ،انطلق من إثبات الذات الإنسانية أولا، ثم تطرق إلى إثبات وجود العالم الخارجي، ثم إثبات وجود الله .

1- جون كونتفاهم ، العقلانية، ترجمة محمود منفذ الهاشمي، مركز الانتماء الحضري، سوريا ط1، 1997، ص 59.

2- جنيفاف روديس لويس، المرجع السابق ،ص110

(*)- **ليبنتز**: أعظم فيلسوف ألماني قبل كانط، وعالم بالرياضيات ولاهوتي وكيميائي، وهندسي ومؤرخ ودبلوماسي ولد في 1646، كان أبوه أستاذا للفلسفة الأخلاقية في مؤسسة دينية ،وقد تعلم اللاتينية بمفرده وفي سن الخامسة عشر انتسب إلى كلية الفنون ، وفي السابعة عشر من عمره تقدم برسالة في مبدأ التشخص، ونال شهادة البكالوريوس في الفنون، وتوفي في عام 1716م،(ينظر :جورج طرابيشي المرجع السابق ص578).

المبحث الثالث :مفهوم الطبيعة البشرية عند سبينوزا.

يطلق مصطلح الإنسان على ذلك الكائن الذي يتكون من جانبين جانب مادي وجانب روحي، فالمادي يتمثل في الجسم والروحي يتمثل في النفس ولا يمكن فصل الروح عن الجسد، ويعرّف الإنسان عند تحديد المناطقة على أنه حيوان ناطق، فيقصد بالحيوان جنسه والناطق فصله حيث يعرفه **ابن سيناء***في كتابه النجاة: "ليس الإنسان إنسانا بأنه حيوان أو مانت أو أي شيء آخر بل بأنه مع حيواناته ناطق، ويرى الفلاسفة الإلهيون أن الإنسان هو المعنى القائم لهذا البدن ولا مدخل للبدن في مسماة وليس المشار إليه بأنه هيكل المخصوص بل الإنسانية المقومة لهذا الهيكل والإنسان إذن شيء مغاير لجملة أخرى للبدن" [1].

ويعرف سبينوزا الإنسان بأنه ذلك "المركب من حال امتداد وهو جسمه ومن حال فكري وهو نفسه، والجسم هو آلة مؤلفة من آلات النفس (فكر الجسم)،وأي فكرة موضوعها الجسم الموجود بالفعل فهي تبدأ وتنتهي مع الجسم ، وعلتها خارجة عنها نلتمسها في أحوال أخرى من الفكر مقابلة لأحوال الامتداد التي هي علة الجسم والإحساس ظاهرة جسمية ،أما الإدراك فهو ظاهرة فكرية تقوم في تصوير النفس للإحساس وقت انفعال الجسم به"[2].

– إن الإنسان في نظر سبينوزا مكوّن من نوعين ، هما الفكري والذي يتمثل في الروح وهي المحرك الأول للجسم والنوع الثاني وهو المادة وهي تتمثل في الجسم، و الجسم في هذه الحالة ما هو إلا ألة تحركها الروح في إي وقت وإذا انفصلت الروح عنه فإنه يصبح بلا حركة ،حيث يقول "أعني بالجسم ذلك الحال الذي يعبر عن نحو معين ومحدد عن ماهية الله من جهة اعتبارها شيئا ممتداً إنما ينتمي إلى ماهية الشيء وهو ذلك الذي إذا وجد وجد الشيء ،وإذا بطل بطل الشيء، وأيضا ذلك الذي لا يمكن للشيء أن يوجد بدون الشيء ولا أن يتصور "،[3] وبهذا فإن اسبينوزا يعني بأن كل ما هو روحي مرتبط بما هو مادي ويمثل الجانب الروحي الشرط الأساسي لوجود المادي فانعدام الوجود الروحي يترتب عنه بضرورة انعدام الوجود المادي فعدم وجود الروح يعني

1– نقلا عن ،جميل صليبا المعجم الفلسفي، المرجع السابق ج1، ص ص 155، 156.

*– **ابن سينا**: ولد أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا في أفشة، على مقربة من بخاري عام980م، في بيت اشتغل في خدمة الدولة، وتلقى العلوم العقلية والشرعية في بيت أبيه ،وكانت تسود هذا البيت تقاليد فارسية وقد نضج عقله وجسمه بسرعة، فدرس الطب والفلسفة في بخاري وكان في السابعة عشر من عمره عندما أسعفه الحظ ،في شفاء الأمير نوح بن منصور، على يديه. وتوفي وهو في السابعة والخمسين من عمره، عام 1037،(ت،ج دي بور .تاريخ الفلسفة في الإسلام، الدار التونسية للنشر ،الجزائر، د ط د ت، ص ص 256، 257).

2 –سبينوزا ،علم الاخلاق ،ترجمة جلال الدين سعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009 ص،81.

3– سبينوزا، علم الاخلاق، المصدر السابق ص81.

عدم وجود الجسم ،أو يصبح الجسم من الموجودات الجامدة ،ويشير إلى ذلك في قوله "أعني بالفكرة تصور تنشئة النفس، بوصفها شيئا مفكرا حيث يؤكد في القضية< 10> لا ينتمي كيان الجوهر إلى ماهية الإنسان وبعبارة أخرى ليس الجوهر ما يؤلف الإنسان "البرهان "فعلا ينطوي كيان الجوهر على الوجود الضروري <القضية 7.>ولو كان الكيان الجوهري ينتمي إلى ماهية الإنسان لكان وجود الجوهر يفضي بالضرورة وجود الإنسان، وبالتالي لكان الإنسان موجود بالضرورة وهذه البديهية محال"[1] ويقصد بهذا المنطلق أن وجود الإنسان مرهون بوجود جوهر أزلي ثابت ويتمثل هذا الجوهر في الله الذي هو علة الوجود بأكمله ولا يمكن أن يوجد موجود خارج عن وجوده، ومنه فلا يمكن أن نقول أنه "يوجد في الطبيعة أكثر من جوهر واحد فلو كان الحال كذلك لقلنا إن جوهر الإنسان يختلف عن جوهر الله، وبتالي فإن وجوده حتمي ثم إن وجود الإنسان ما هو إلاّ ناتج، عن تصورات معينة لصفات الله لأن كيان الجوهر لا ينتمي إلى ماهية الإنسان هذه الماهية هي شيء موجود في الله ولا يمكنها بدون الله أن توجد ولا أن تتصور"[2].

إن جميع فلاسفة العصر الحديث، يؤكدون على أنّ الإنسان ذلك الكائن المركب الذي يتكون من روح وجسد ووجوده ليس ضروري لأنه لا يحتوي على جوهر خاص به وإنما وجد بعلة فاعلة وهي وجود الله، ثم إن وجود الله علة في وجود كل الموجودات ولا يمكن حصر ايجاد الله للموجودات في مفهوم أو معنى الصيرورة فقط، وإنما وجودهم في معنى الوجود أي صار وجودهم حقيقي بعد أن كان منعدما، إن النفس تتمثل في ذلك الجانب الخفي والذي يعمل عل تحريك الجسم، وبما أنها تمثل الجانب الخفي فذلك يعني أنها جزء من الله ويؤكد سبينوزا في هذا بأن النفس البشرية جزء من عقل الله اللامتناهي، وبالتالي فعندما نقول "إن النفس البشرية تدرك هذا وذلك فإن ما نقصده هو أن الله ليس بما هو يتبدى من خلال طبيعة النفس البشرية، أو بما هو مؤلف لماهيتها يملك هذه الفكرة أو تلك ليس بما هو مكون لطبيعة النفس البشرية فحسب، بل أيضا من جهة كونه يملك بالإضافة إلى هذه النفس بالاشتراك معها في فكرة شيء آخر فإننا نقول آنذاك، إن النفس البشرية تدرك شيئا ما إدراكًا جزئيًا أو غير تام" . [3] حيث يشير في القضية "12" أن كل ما يحدث في موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية لابد أن تدركه هذه النفس

1- سبينوزا علم الاخلاق المصدر السابق ص91.

2 -المصدر نفسه، ص، 92.

3- المصدر نفسه ص94.

وبعبارة أخرى فإن "فكرة هذا الذي يحدث موجودة بالضرورة في النفس، بمعنى أنه إذا كان موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية هو الجسم فإنه يحدث شيئا في هذا الجسم لا تدركه النفس".[1]

إن الله هو من أوجد الوجود ومن أهم هذه الموجودات وجود كيان الإنسان، وبما أن الله هو السبب في وجود هذا الكائن العاقل فإن الله حتما يعلم بكل ما يحيط بالإنسان ، سواء من الناحية الروحية أي بكل ما يفكر فيها الإنسان أو من الناحية المادية أي بكل ما يؤثر في جسمه، أي أن الله يعلم ويتأثر بكل ما تفكر فيه النفس وهذا ما يجعل النفس في حذ ذاتها على دراية بأنّ الله يعلم بكل أفكارها، وأن هذا الفكر لا يمكن أن يوجد خارج نطاق الطبيعة، فهو يخضع للقوانين الطبيعية وهي قوانين التداعي أو الترابط تشبه قوانين الحركة في الامتداد وفكرة النفس عن ذاتها وفكرتها عن جسمها وفكرتها عن الجسم الخارجي" إن هذه الأفكار غير مترابطة ومتطابقة لأنّ النفس وجسمها والأجسام الخارجية أحوال متناهية عللها في غيرها من الأحوال المتناهية ،فمن شأن طبيعة الإنسان المتناهية أن تدعه غير معقول عن نفسه هو إنما يعقل ذاته بردها إلى نظام الكلي والسرمدي واعتبارها جزءا من الجوهر الأوحد"[2].

إن وجود الإنسان وجود متصل مع الكون الذي ينتمي إليه وبالتالي فهو مجبر بأن يطبق القوانين التي يسير وفقها الكون، ومن جهة أخرى فإن جسم الإنسان مرتبط ارتباطا وثيقا بالنفس فالنفس هي الجوهر الحقيقي بالنسبة للإنسان ، إن أهم ميزة تميز بها الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى هي ميزة الفكر إذ يستعمل هذا التفكير في أهم خطوة أولى وهي ومحاولة الحفاظ على استمرارية بقائه ويسمى هذا الحفاظ بسعي إلى تحقيق الفضيلة وكل ما يسعى إلى تحقيقه يعد خيرا وكل ما يحول دونه يعد شر ،فهو بهذا التعقل يهدف إلى تحقيق اللذة و تجنب تحقيق الألم، حيث يرى سبينوزا "أن تحقيق السعادة القصوى لا يكون إلا باستكمال العقل إلى أبعد الحدود حيث يدعو هذا الأخير إلى استكمال الفكر إلى أبعد حد ممكن ،وفي هذا تكمن السعادة القصوى للإنسان ،أمّا الخير الأسمى فهو يكمن في معرفة الله وحين يعرف الكائن العاقل الله معرفة حدسية لا يملك إلّا أن يحبه وهذا ما يصطلح عليه سبينوزا الحب العقلي لله "[3]، يحصر سبينوزا تحقيق السعادة في تجسيد دور العقل، أي أن تفعيل العقل يجلب

1-سينوزا علم الاخلاق المصدر السابق ص 96.

2- الشيخ كامل محمد عويضة ،باروخ سبينوزا، فيلسوف المنطق الجديد ،دار الكتاب العلمية لبنان، ط1، 1993م، ص61.

3- إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة ،دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر ، مصر، (د ط) 2000، ص205.

السعادة للإنسان في حين أنّ معرفة الله تحقق الخير الأسمى وتكون معرفة الله الحقة تلك المعرفة ذات المصدر إلهامي، وهو نوع المعرفة التي لا تحتاج إلى برهان أو دليل.

يذهب سبينوزا إلى ما ذهب إليه الفلاسفة في العصور القديمة، إلى أن كل خطأ يرجع إلى غلطة عقلية فالإنسان الذي يفهم فهما ملائما لظروفه الخاصة به يتصرف بحكمة بل سيكون سعيدا في مواجهة ما قد يكون بالنسبة للأخر حظا عاثرا، فهو بهذا يبحث عن المحافظة على النفس وبقائها بحكم السلوك الإنساني كله "فليس ثمة فضيلة يمكن تصورها سابقة على هذه المحاولة للمحافظة الشخص على كيانه الخاص"[1].

بين سبينوزا بأن ماهية الإنسان لا تنطوي على وجوده الضروري أي أنه يجوز وفق نظام الطبيعة أن يوجد الإنسان أولا يوجد، ثم إن ميزة الإنسان هي التفكير إلا أن فكر الإنسان جزء من فكر الله المطلق، "فالفكر إذن صفة من صفات الله اللانهائية وتعبر هذه الصفة عن ماهية الله الأزلية وبعبارة أخرى فإن الله شيء مفكر، ومن هذه القضية نستطيع تصور كائن مفكر لا متناه إذ كلما كان كائن مفكر يستطيع التفكير في أشياء أكثر فإننا نتصور متضمنا لواقع أو كمال أكثر، وبناء على ذلك فإن الكائن الذي يستطيع التفكير في عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الطرق، هو حتما كائن لا متناهي بفضل التفكير وما دمنا نتصور بالنظر إلى الفكر فحسب وجود كائن لا متناه فالفكر هو بالضرورة إحدى صفات الله اللامتناهية "[2].

إذا كانت النفس تتجسد في الفكر وبواسطة تفكيرها تحرك الجسم فالتفكر إذن إحدى مكونات النفس، وإن للجسم مجموعة من المكونات التي تجعله يتأثر بتفكير النفس وكذلك بالعالم الخارجي المنتمي إليه ،"يتألف الجسم البشري من عدد كبير جدا من الأفراد ذو طبائع مختلفة ،وكل جسم بشري بعضهم سائل وبعضهم لين وآخر بعضهم صلب، حيث يتأثر الأفراد الذين يؤلفون الجسم البشري وبالتالي يتأثر الجسم البشري نفسه بالأجسام الخارجية بعدد كبير جدا من الأوجه ،كما يحتاج الجسم للمحافظة على كيانه إلى عدد كبير من الأجسام الأخرى التي تجدد باستمرار"[3].

إن مكونات الجسم تجعل الجسم قادرا على التأثير في الأجسام الأخرى، كما إنها تعمل على المحافظة على بقائه ثم إن تلك المكونات التي تتمثل في (ليّن سائل صلب)، إذا اصطدمت مع بعضها البعض فإنها تجعل في الجسم أثار الاصطدام مما يجعل

1- برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ،المصرية العامة للكتاب، مصر(دط)، 1980، ص126.

2 - سبينوزا، علم الأخلاق، المصدر السابق، ص84.

3 - المصدر نفسه، ص، 103.

الجسم قادرا على التحكم في حركة الأجسام الأخرى. إن الجسم البشري كائن حيواني، وهو جزء من العالم الخارجي وبالتالي فإن وجوده في هذا العالم يجعله يؤثر في تلك الموجودات مما يجعلها تتغير عن طبيعتها الأولى. ثم إن الجسم متصل بالنفس والنفس عارفة لكل ما يحدث للجسم من أثر وتأثير خارجي لكل الأجسام المحيطة به.

يتفق جميع الفلاسفة على أن وجود الإنسان صادر عن وجود الله، وأنّ جوهر الإنسان من جوهر الله وبالتالي فإنه لا يمكن لأي شيء أن يوجد ولا أن يتصور من دون الله لأن الجميع يسلم بأن الله هو العلة الفريدة لكل الأشياء سواء لماهيتها أو لوجودها، أي أن "الله ليس علة كل الأشياء من جهة الصيرورة، كما يقال بل أيضا من جهة الوجود، إلا أن أغلب الناس يقولون إن الأمر الذي ينتمي إلى ماهية شيء هو الأمر الذي لولاه لما أمكن للشيء أن يوجد أو يتصور، وبالتالي يعتقدون أنه إما أن طبيعة الله تنتمي إلى ماهية الأشياء المخلوقة وأما أن الأشياء المخلوقة لا يمكنها أن توجد أو أن تتصور من دون الله" [1]، إلّا إن هذه النظرة الخاطئة في حق الله والطبيعة الإلهية، لا يمكن أن توجد أشياء مهما كان جنسها خارجة عن الطبيعة الإلهية، ثم إن الإنسان يتكون من مجموعة من الأحوال والصفات التي هي مصدر إلهي وكذلك من ماهية الفكر الذي هو جزء من التفكير الإلهي المطلق ."إن الذهن الإنساني هو جزء من الفهم الله اللامتناهي وبالتالي فعندما نقول إن الذهن الإنساني يدرك هذا الشيء أو ذاك لا نقول سوى أن الله لا من حيث كونه متناه، بل من حيث كونه يشرح ذاته عبر طبيعة الذهن الإنساني"[2].

يرى سبينوزا أن الله هو خالق الإنسان، وأنّ "الله هو السبب الوحيد في الأشياء في جوهرها وكذلك اعتبارا من وجودها"[3]، أي أنّ الله جعل للموجودات جوهرا والتي تنحل في الجسم وتمثل في ذلك الوجود غير الممتد، ثم إن الروح في أصلها ما هي إلا جزء من الجوهر الأصلي وهي روح الله وهو أدرى بكل ما يحيط به، فهذا لا يعني أن الله يقتصر علمه على الإنسان وفكره فحسب بل إن علم الله محيط بالكل ما يحيط به الإنسان سواء إن كان في ذات الإنسان نفسه أو خارجًا عن الذات الإنسانية أي بكل الموجودات التي توجد في العالم الذي يعتبر الإنسان جزء منه .

إن ميزة الفكر التي تميز بها الكائن العاقل عن بقية الكائنات الأخرى ما هو إلا انبثاق جزء ضئيل من فكر الله الواسع فلو بقي الإنسان على فكره الفطري لا كتشف أو اهتدى إلى وجود الله دون الرجوع إلى أدلة وبراهين يثبت بها وجود الله، ذلك الوجود الأزلي اللامتناهي، وهذا دليل على أن فكر الإنسان متصل بفكر الله. ويؤكد سبينوزا على أهمية التفكر وكيف أنه يحقق

1 – سبينوزا، الاتيقا ، ترجمة أحمد العلمي،دار إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2010، ص94.

2- المصدر نفسه، ص95.

3 – Benedict Spinoza **Ethics** .demonstrated. in. Geometical .order.2004.pag 11

الخير الأسمى للإنسان حيث يقول في هذا "لا بد قبل كل شيء من التفكير في وسيلة لشفاء العقل وتطهيره قدر الإمكان حتى يوفق في إدراك الأمور على أحسن وجه ودونما خطأ"[1].

إنّ تفعيل دور العقل وجعله يسير في الطريق الصحيح يحقق هذ النمط من العمل تحقيق السعادة القصوى، وبذلك يخرج الإنسان من الفكر الساذج والسطحي الذي يغلب عليه طابع الأهواء والميولات إلى طابع التفكير السليم، وأهم نقطة يصل اليها الكائن البشري بفكره الصحيح هي اكتشافه وجود الله، ومن ثم يحقق بهذا الخير الأعظم. وفي نظر سبينوزا فإن السعادة تتمثل في تحقق الحرية الفكرية ،حيث يعرف سبينوزا السعادة على أنها "هي السعي من أجل ان يدرك الأخرون ما ادركه بوضوح، بحيث يتفق فهمهم وتتفق رغباتهم اتفاقا تاما مع فهمي الخاص ورغباتي الشخصية. ويقتضي بلوغ هذه الغاية ،معرفة الطبيعة بالقدر الكافي لاكتساب ما نصبو اليه من كمال طبيعتنا "[2].

إن السعادة في فكر سبينوزا تتجلى في تحقيق تناسق بين ما يفكر فيه الفرد ،وما يفكر فيه مجموعة أفراد المجتمع المنتمي اليه فالاختلاف الحاد بين الافراد يجعل من الفرد الواحد يعيش في حزن بدلا من تحقيق السعادة التي يهدف إلى تحقيقها من خلال اندماجه في المجتمع.

1- سبينوزا، رسالة في إصلاح العقل، ترجمة جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس،(د-ط)، 1990،ص 31.

[2] -المصدر نفسه، ص 30.

الفصل الثاني: علاقة الدين بالسياسة في فلسفة سبينوزا

المبحث الأول :فلسفة الدين عند سبينوزا

المبحث الثاني: فلسفة السياسة عند سبينوزا

المبحث الثالث: طبيعة العلاقة بين والسياسة في فلسفة

الفصل الثاني :طبيعة العلاقة بين الدين والسياسية في فلسفة سبينوزا.

المبحث الأول: فلسفة الدين عند سبينوزا:

يمثل الدين قضية من أهم القضايا التي اهتمت بها فلسفة العصر الحديث، لأن الدين كان في الفلسفات القديمة مندمجا تحت أنواع المعارف المختلفة، وقد ظهر الدين كفرع مستقل عن المجالات الأخرى في فكر الفيلسوف سبينوزا، الذي يعتبر أول من نادى بفكرة دراسة الدين دراسة عميقة، ويمثل الدين ذلك الجانب الروحي والذي يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات، وقد بين سبينوزا الفرق بين الدين والتدين فإذا كان الدين يتمثل في الاعتقاد التام بوجود إله، فإنّ التدين مسألة بشرية تتمثل في ممارسة عقائدية يقوم بها الفرد لتقرب من معبوده سوى إن كان المعبود روحيًا أو مادياً، وقد شملت فلسفة الدين عند سبينوزا دراسة معمقة حول اثبات وجود الله بالأدلة والبراهين، وقد انطلق من فكرته القائلة بوحدانية الجوهر وأّن أصل الوجود يعود إلى جوهر واحد وهو الله ، حيث يعرف سبينوزا الله "على أنه علة ذاته أي ما تنطوي ماهيته على وجوده، وما لا يمكن لطبيعته أن تتصور إلا موجودة وهو حر بالضرورة، أزلي يحدد فعله بذاته"[1].وبهذا يكون سبينوزا قد أرجع أصل جميع الموجودات إلى الله وإن الله هو العلة الفاعلة في الكون ،وإن وجوده مستمد من ذاته أي موجود من العدم ، ويعرفه كذلك على أنه "كائن لا متناهي اطلاقا أي أنه جوهر يتألف من عدد لامحدود من الصفات، تعبّر كل واحدة منها على ماهية أزلية لا متناهية" [2]، فإذا كان للإنسان صفات يمتلكها فإن تلك الصفات ما هي إلا جزء من صفات الله الثابتة. إنّ ميزة فلسفة الدين عند سبينوزا تختلف عن غيرها في كونه لم يميز بين العالم الخارجي والله، حيث جعلهما الشيء نفسه، مرجعا أصل الكون إلى الله وقد قسمها إلى قسمين قسم **الطبيعة الطابعة*** **والطبيعة المطبوعة**** ويظهر ذلك من خلال ما يلي :

1–الله بوصفه الطبيعة الطابعة: أخذ سبينوزا فكرة الجوهر من فلسفة أرسطو، حيث يعرف أرسطو الجوهر على "أنّه ما لا يستند إلى موضوع ولا يوجد في موضوع"[3]. ويرجع أرسطو إلى أن أصل الوجود يكمن في جوهر واحد وهو علة الوجود بأكمله

1– عبد القادر تومي ،أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر ،ط1، 2011، ص95.

2– باروخ سبينوزا ،علم الأخلاق ،المصدر السابق، ص ص ،3,31.

(*) – **الطبيعة الطابعة** ،: اصطلاحان مدرسيان انتشرا في الفلسفة الروبية، فالطابعة تعني عند سبينوزا الجوهر اللامتناهي وهو الله ، (جميل صليبا المعجم الفلسفي ج2،دار الكتاب اللبناني لبنان (د–ط)، 1982 ، ص 16.

(**)– **الطبيعة المطبوعة**: تعني مجموع احوال الجوهر واعراضه، المرجع نفسه، ص ن.

3– نقلا عن ،ماجد فخري، ارسطو طاليس، المطبعة الكاثوليكية ،د ط، بيروت، 1958، ص25.

وهو أنّ الله يشتمل على جميع الجواهر التي تكون سبب في وجود الموجودات ، وأن كل وجود له جوهر يتوقف وجوده عليها إلا أنها في الأصل تعود إلى جوهرها الثابت والأزلي وهو الله ، وأن وجود الجوهر لا يتوقف بانعدام الموجودات فهو مستقل عنهم فوجوده يعني أنه واجب الوجود، هذا وقد بين أرسطو أن للجوهر عدة خصال يتميز بها وهي أن" وجوده يكون بذاته ولا ضد له وأنه لا يختلف في الدرجة عن سواه كما أنه حامل للأضداد"[1]، والجوهر في نظر ارسطو هو العلة الفاعلة في الكون وقد وضع ارسطو للجوهر ثلاث معاني منها "الهيولة*، والصورة**، والمركب ،والمركب من الهيولة والصورة، فالهيولة هي الجوهر من حيث موضوعة لصورة وهي تعاقب عليها الصورة لتكسبها التعين والتحديد، لأنها موضوع غير معين فهي قوة لا تدرك بذتها فهي بحاجة إلى صورة"،[2] وجود الهيولة مرتبط بوجود الصورة أي أن الصورة هي من تحدد الهيولة وتبيّن نوعها وكل من الصورة والهيولة لا يمكن أن يخلو منهم أي جسم ،كما أن فكرة عودة الأشياء إلى الجوهر كانت سائدة في العصر الحديث، حيث كانت ظاهرة في فكر ديكارت الذي يعرف الجوهر " حين نتصور الجوهر إنما نتصوره موجودا، غير مفتقرا إلاّ إلى ذاته في وجوده"[3].

إنّ قول ديكارت أن الجوهر غير موجود، إلا بذاته يعني أنه حر في وجوده ولا يستند إلى غيره من الموجودات، ثم إنّ كل الموجودات تتكون من جوهرين جوهر روحي وجوهر مادي، وقد خص ديكارت وحدانية الجوهر في الله فقط، وهو ثابت وأزلي أمّا الأشياء الأخرى فإنها تحتوي على جوهرين مادي وفكري وهما متصلان ولا يمكن أن نجد إحداهما دون الآخر، وإذا كان ديكارت قد أطلق فكرة تكوّن العالم من جوهرين، إلا أن الأمر مختلف في نظر سبينوزا الذي أرجع جميع الموجودات إلى جوهر واحد حيث يعرّف الجوهر على أنه "ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته أي لا يتوقف بناء تصوره على تصور شيء آخر "[4].

إنّ وجود الكون في نظر سبينوزا مرهون بوجود الجوهر الثابت والأزلي الذي يتمثل في الله ،الذي هو العلة الفاعلة في الوجود وفي هذ الصدد فإن سبينوزا قد أثبت بأن الله موجود انطلاقا من عدة براهين وهي :

1- ماجد فخري ، المرجع السابق، ص 25.

(*)– **الهيولة**: كلمة يونانية الأصل يراد بها المادة الأولى وهوما يقبل الصورة وترجع إلى ارسطو ثم أخذ بها المدرسيون من بعده.(ابراهيم مدكور، المرجع السابق، ص208).

(**)– **الصورة**: هي الشكل الهندسي المؤلف من الابعاد التي تتحدد بها نهاية الجسم كصورة الشمع المفرغ في قالب فهي شكله الهندسي، فهي تدل على الأوضاع الملحوظة في الأجسام .(جميل صليبيا، المرجع السابق، ج1، ص741).

2 – حمال فريدة، وحدة الاله والطبيعة في مذهب سبينوزا، مذكرة ماجستير إشراف عبد الرحمن بوقاف، معهد الفلسفة جامعة الجزائر،2001. 2002، ص 34.

3- المرجع نفسه، ص 36.

4- باروخ سبينوزا ،علم الاخلاق، المصدر السابق ص 31.

1 – البرهان الأول :واجب الوجود ،بين سبينوزا أن الله موجود ضروري، فوجود الوجود يقتصر عليه وأن وجوده حر ومطلق ،فهو واجب الوجود فهو موجود من العدم فوجوده لا يرتبط بشيء أخر يكون سبباً في وجوده، وإنما وجوده يكون قائما بذاته، إي أنه أوجد ذاته بذاته ،كما أن وجود الوجود متوقف عليه لذلك فإن وجوده واجب الوجود.

2–البرهان الثاني :**عقلانية** *الطبيعة ،إنّ جميع الأشياء الموجودة في الكون لها سبب وعلة في وجودها والسبب في وجودها يتمثل في وجود الله ، حيث يعتبر" الله العلة الفاعلة والموجودة لكل موجودات العالم الخارجي فإذا وجد مثلث فإنه ينبغي أن يوجد سبب لوجده وكذلك انعدامه له سبب جعله غير موجود ، ثم إن جميع الأشياء الموجودة لها سبب في وجودها، كما أن عدم وجودها له سبب".[1]إن وجود الأشياء في العالم الخارجي مرهون بوجود سبب وهو الله و انعدامها كذلك يعود إلى علة معينة إي أنّ الله هو العلة الفاعلة في وجود الأشياء، وفي الوقت نفسه علة في عدم تحقق وجودها.

3– البرهان الثالث: القدرة على الوجود ،يبرهن سبينوزا على أنّ " كل الأشياء الموجودة في العالم كان مصدرها من القدرة على ذلك فإذا اكتسب الشيء القدرة على الوجود يكون وجوده الأصلي ناتج عن قوة، فالقدرة على الوجود مرتبطة بالقوة على اثبات الوجود، أما إذا فقد القدرة على الوجود فيعني ذلك أنه عجز على أن يكون موجودا". [2]

إنّ وجود الأشياء مرتبط كذلك بوجود عنصر القدرة المرهون هو نفسه بالقوة، أي أن كل من القوة والقدرة عنصران أساسيان في الوجود، ويترتب عليهما استحالة وجود الوجود خارج نطاقهما.

4–البرهان الرابع ،وفي هذا البرهان فقد بين سبينوزا بأنه لا يختلف عن الثالث في موضوعه، أي أنه إذا كانت القدرة على الوجود مرهونة بوجود القوة فإنه" يترتب عليه بقدر ما تزداد الأشياء واقعية فإنها بذلك القدرة تزداد قوتها الذاتية على الوجود وتقتصر القوة الذاتية المطلقة اللامتناهية على كائن واحد وهو الله" [3].

من خلال جملة البراهين التي اعتمد عليها سبينوزا في اثبات وجود الله، فإننا نجد أن الله عند سبينوزا قد بين بأن وجود الله أزلي وقديم ،كما أن وجوده ينبثق عنه جميع الموجودات حيث يمثل مصدر جميع الموجودات المادية منها والروحية ،ثم إن الله عند سبينوزا

---

1 – كريم متى، الفلسفة الحديثة، عرض نقدي، دار أويا لطباعة والنشر، ليبيا ط2، 2000م، ص107.

*– **العقلانية** :هي القول بأولية العقل وتطلق على معنيين الأول، أنها كل موجود له علة في الوجود بحيث لا يحدث في العالم شيء إلا وله مرجع معقول والثاني أن المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية لا عن تجارب حسية . (ينظر جميل صليبا ،المرجع السابق ،ج2.ص90).

2 – كريم متى ، المرجع السابق ،ص ،107.

3– المرجع نفسه ،ص 107.

يتميز بصفتي وهما المتناهي **واللامتناهي*** وتشمل فكرة المتناهي العالم الخارجي، أي وجود الكون غير أزلي وأبدي فهو مؤقت ،أما اللامتناهي فهي من صفات الجوهر الأزلي والثابت ،أي أن الطبيعة الطابعة تتميز بأنها أبدية **وسرمدية**** في حين أن الطبيعة المطبوعة تتميز بأنها غير ثابتة وهي متغيرة على اعتبار أن التغير يكون في الاحوال والثبات يكون الجوهر.

2-**الأحوال بوصفها الطبيعة المطبوعة** :اعتمد سبينوزا في إثبات وجود الله على فكرة الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة، فإذا كانت الطبيعة الطابعة تشير إلى وجود الله المطلق، وكيف أن هذه الطبيعة قد طبعت العالم الخارجي ونقلته من العدم إلى الوجود وتختلف الطبيعة المطبوعة عن الأولى على أنها تمثل جملة من الأحوال والأعراض الذي يجري عليها الأعراض والتفاني والزوال ويعرّف سبينوزا مصطلح الأحوال في كتابه الأخلاق في قوله: " أعني بالحال كل ما طرأ على الجوهر وبعبارة أخرى ما يكون قائمًا على شيء غير ذاته ويتصور شيء غير ذاته"[1].

وهذا القول يعني أن الأحوال تكون عاجزة عن إيجاد نفسها بنفسها فهي تحتاج إلى جوهر ثابت لإيجادها، كما أن الأحوال لا يمكن أن تتصور ذاتها بذاتها إلا من خلال تصور ذات أخرى تتمثل في الجوهر، فالله موجود على ناحيتين وجوده المتناهي والذي يتجسد في الكون، ووجوده الأبدي والذي يتمثل في ذاته. لقد ربط سبينوزا فكرة الطبيعة المطبوعة بالأحوال والتي يقصد بها ما "يطلق على الأشياء الفردية التي نشاهدها في الحياة الاعتيادية، مثل الأشجار الحيوانات، الجبال"[2].

وتتجسد الأحوال في الأفراد الموجودة في الطبيعة، فهي تبدوا في الكون أنها منفصلة عن بعضها البعض ولكل منها مجاله الخاص، إلا أنها في حقيقة الأمر متوقف وجودها عن بعضها البعض، فهي مترابطة مع بعض وتشكل حلقة متواصلة مع بعضها فكل منها متوقّف وجوده على الآخر ويؤثر وجوده عليه، لأن تلك الموجودات تتصف بصفة النقصان، وعدم كمالها يجعلها بحاجة إلى إتمام ذلك النقص، فهي تكون سلسلة اتصال غير مباشر مع بعضها البعض، وأي خلل يطرأ على إحدى تلك الموجودات فإنه حتماً يؤثر على بقية الموجودات الأخرى. إن ذلك النقص الذي تتميز به موجودات الطبيعة المطبوعة يجعلها في بحث مستمر عن ما تكمل به النقص، إن "هذا النقص يدفع تلك الأفراد إلى الالتحام بصورة حتمية لتغطية النقص وتحقيق صفة

1- سبينوزا، علم الاخلاق، المرجع السابق ،ص 31.

2- كريم متى، المرجع السابق،ص111.

(*)- **اللامتناهي**: ما لا يمكن أن تكون له نهاية ويتميز من اللامحدود وهو ما لم يحدد بالفعل وإن كنت له حدود واطلقه ديكارت على الله. ابراهيم مدكور، المرجع السابق ص، 160.

(**) - **سرمدي** :ما لا أول له ولا آخر ،فهو خارج عن مقولة الزمان ،وموجود بلا بدء ولا نهاية. المرجع نفسه، ص 79.

الكمال*، فنجد مثلا أن عين الإنسان مرتبطة به وحده بذاته ،في حين أن الإنسان متصل بالكون والكواكب في سلسلة ترابط بصورة اتحادية، إنّ هذا الاتحاد بين الأشياء له علة واحدة وهو النقص الذي يطرأ على الموجودات "[1].

إن الكمال صفة من صفات التي يتميز بها الله عن بقية الموجودات ، ومن أجل سد النقص فإن الموجودات الناقصة تعمل على تحقيق نوع من الكمال ، حيث يقول سبينوزا "لما كان الإنسان غير قادر على إدراك هذا النظام بفكره ،وكان يتخيل طبيعة بشرية تفوقه، قوة بكثير ولا يرى أي مانع لاكتساب طبيعة تماثلها ،فإنه قد وجد نفسه مدفوعاً إلى تحقيق الكمال ،فسمي خيراً حقيقياً كل من ساعده على ذلك"[2].

تعتمد فلسفة الدين عند سبينوزا على فكرة وحدانية الوجود والذي يترتب على وحدة الجوهر، إن الجوهر عنده يتمثل في وجود الله والله هو جوهر واحد ،و جميع جواهر الأشياء تعود في إلى مصدر واحد وهو الله، ويعني بذلك أن الله هو سبب في وجود جوهر الأمور ولا يكمن أن نجد شيء خارج عنه. الكون في نظر سبينوزا متوقف في الأساس على وجود الله ، فالله والجوهر عند سبينوزا هو الشيء نفسه، وهذا ما أشار إليه المفكر وليم رايت في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة "بأن الاصطلاحات الثلاثة ،جوهر طبيعة ،الله، تعني الشيء نفسه"[3].

إن الوجود في فلسفة سبينوزا مقتصر على وجود الجوهر الثابت المتمثل في الله، وإن هذا الكائن المطلق قد تجسد في العالم المادي، وقد كانت بداية انطلاقة سبينوزا مثل ما تطرق اليه ديكارت بأن الله هو الكائن المطلق واللامتناهي ومع هذا فإن سبينوزا يخالف ديكارت في وحدانية الجوهر، فإذا كان ديكارت بين بأن الجوهر يتكون من الفكر والمادة فإن سبينوزا قد اقتصر الجوهر عنده على الله فقط، أما الموجودات فهي أجسام يعود مصدرها الأول إلى الله لأن فلسفة الدين عند سبينوزا لم تكن مقتصرة على وجو الله أو علاقة الإنسان بالله وإنما كانت له مواقف حول العقائد الدينية الأخرى، وكيف أنها كانت مصدر في نشر بعض الأفكار نظر اليها البعض على أنها متطرفة وخارجة عن المعتاد ،وهي أفكار خطيرة على العقيدة اليهودية ،وإذا ما نشرت تلك الأفكار فإنها تؤدي بزعزعة الاستقرار التي طالما سعو اليهود إلى الحصول عليه وتحقيقه ،ثم إن أفكار سبينوزا حول الدين هي أفكار

1-كريم متى ،المرجع السابق، ص11.

(*)-**الكمال**: مصطلح ارسطي، يراد ما تم في مقابل ما لم يتم، والكمال الذي يتحقق بهذا الكمال، ويتمثل في الصورة واللوجوس الذي يخرج ما هو بالقوة الى ما هو بالفعل ويطلق على النفس التي هي كمال الجسم .ابراهيم مدكور ،المرجع السابق ، ص 155.

2- سبينوزا ،رسالة في اصلاح العقل ،المرجع السابق ص30.

3 -علي عبد المعطي وأخرون ، الفلسفة الحديثة ،دار لمعرفة ،الجامعة المصرية (د ط)،2002، ص ص 92 93.

تعبر عن مدى نفي صاحبها إلى اعتاق أي دين ،إن نشر سبينوزا مثل هذه الافكار جعل قوم طائفته يتهمونه **بإلحاد*** وخاصة في اعلانه لرفض العقيدتين ويتمثل موقفه من العقيدتين في:

أ–موقفه من العقيدة اليهودية: عاش سبينوزا فترة بداية حياته ظروف صعبة، فهو كان يهوديا لاجئًا إلّا أنه عاش بين أوساط المسيحية، حيث تعتبر هولندا البلد الوحيد الذي وافق على رعاية الطائفة اليهودية المهاجرة التي فرت من الاضطهاد الذي تعرضت له في اسبانيا، وقد كانت أسرة سبينوزا واحدة من تلك الطائفة التي كانت تسعى إلى تحقيق الاستقرار ولو في ظل عقيدة أخرى. لقد تميز عصر النهضة في تلك الفترة من الزمن بنوع من الاضطراب، وكذلك أعطى أهمية إلى الإنسان مما أدى إلى انتشار أفكار الإنسانيين، والتي دعت إلى إعادة الثقة بالإنسان وبأنه قادر على إنتاج عالم يناسبه، أدى تطور أفكار الإنسان وحريته التامة إلى تراجع هيمنة الدين الذي ظّل باسطا سيطرته طيلة العصور الماضية، وقد أخذ الدين طابع الانحلال والتفكك وخاصة في الكنيسة التي أصبحت تمثل مصدر للهو والترف لرجال الدين، مما أدى **باللاهوت*** إلى فقدان مكانته بين الناس الذين تكونت لهم فكرة أن الدين لا يمكن أن يتميز بالانحلال، مما أدى بطائفة كبيرة من الناس إلى نبذ العقيدة القائلة "إن القانون الأخلاقي موحى به من عند الله، وإذا كانت هذه الحالة قد سادت في أواسط العامة من الناس فإن الأمر نفسه ساد في أواسط اللاهوتيين، حيث تميز بالفساد والانحلال"[1] حيث أصبح اللاهوت يسير وفق أهواء وميول الأفراد وبتالي لم يعد يمثل أحد المقدسات الدينية، وقد كان سبينوزا متتبعًا لكل تلك الاوضاع السائدة ،فقد وقف موفق الناقد والرافض لشعائر اليهودية حيث كان اليهود وخاصة رجال الدين منهم يتظاهرون ،بأنّ لهم عقيدة لها مقدساتها ولا يجب العبث بها، ومن جهة أخرى كان يسود الأماكن المقدسة كالكنيسة مثلا الانحلال الأخلاقي والفساد والتمرد على التعاليم والقيم الدينية. إن هذه المواقف قد أثرت في فكر سبينوزا وخاصة أنه تأثر بالاطلاع على فلاسفة العصور الوسطى، ومنها فلسفة توما الاكويني، وهذا لا يعني أنه لم يتأثر بالمؤرخين اليهود فقد اطلع على دراسة العقيدة اليهودية وأراد أن يبن المنهج الصحيح التي يجب أن تسير عليه العقيدة في نشر أفكارها، كما بيّن بأن هذه العقيدة (اليهودية) تتصف بأنها عقيدة مخالفة للمعتقدات النص المقدس ،ويعود ذلك إلى ادخال الدين في المنفعة الخاصة فبعد أن قرأ

(*)**الإلحاد**: هو انكار وجود الله .(جميل صليبا ، المرجع السابق، ج1، ص 119).

(**)**– اللاهوت**: هو علم الله وهو نسق من المعتقدات القطعية ،في دين معين ويقوم اللاهوت المسيحي على اساس الانجيل واراء القديس، والاسفار المقدسة والتقاليد المقدسة واللاهوت هو القطيعة المتطرفة، والنزعة التسلطية ويرتبط ارتباطا وثيقا بفلسفة الدين ،التي تحاول ان تبرهن ان اللاهوت يمكن ان يتفق مع العلم .روزنتال يودين ،الموسوعة الفلسفية، تر سمير كرم، دار الطليعة بيروت،ط7، 1997،ص 408

1- كريم متى، المرجع السابق ص14.

التوراة انتقل إلى التلموذ، وقد "اطلع على فلسفة **ابن جبريل*** ، كما أنه تأثر بنظرية موسى القرطبي القائلة بوحدة الكون والله "[1].

لقد عملت تلك المعارف السابقة التي تأثر بها سبينوزا على أن يظهر لليهودية حقائق العقيدة الدينية، ويجب كذلك أن نشير إلى أن سبينوزا قد عاش طبيعة الظلم اليهودي منذ الصغر، حيث كانت له أهداف يرمي إلى تحقيقها وهو في سن الطفولة حيث عبّر عن تلك الأحلام بقوله لأبيه:" عندما أشبّ سأحاول أن أجد وسيلة أضع بها حدا لكره الناس بعضهم لبعض "[2]، حيث كان يهدف منذ صباه إلى إزالة الخلاف القائم بين الطائفة اليهودية، إنّ هذا التوتر الحاصل بين اليهود أنفسهم جعل سبينوزا ينسحب من تلك العقيدة، ويعارض أفكارها بشكل مباشر. لقد أتهم سبينوزا في البداية على أنه أتى بأفكار لم تنص عليها العقيدة اليهودية ومن بين هذه الأفكار فكرته القائلة" بأن لله جسم مادي يتمثل في العالم الخارجي وأن الملائكة هم من الخيال ،كما أنه أشار إلى أن الكتاب المقدس يحمل تناقضات دفعته أن يقدم العقل على الوحي لأنّ العقل هو المحكمة العليا التي تفصل مسائل اليهود، وإذا وجد تعارض بين العقل والوحي فيجب أن يقدم العقل على الوحي فلا يمكن اعتبار نصوص الكتاب المقدس مطلقة "[3].

إنّ تلك الأفكار التي اتهم بها سبينوزا ومن اخطرها اتهامه بالإلحاد حيث أن تلك الاتهامات حرمته من الكنيس اليهودي، وطردته من عقيدة أجداده. وقد روى المؤرخ ديورانت قصة حرمان سبينوزا: "فبعد أن خرج اعضاء الكنيسة إلى ظلام الذي ولده انطفاء آخر جدوة من الضوء مشيرة إلى انطفاء الحياة الروحية للشخص المحروم، اتخذ المجلس اليهودي قرار الحرمان بحق سبينوزا عقابا على هرطقته وبدعه حيث يقول: المجلس بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونعلن وننبذ ونصب دعائنا على باروخ سبينوزا بموافقة الطائفة المقدسة كلها، وبوجود الكتب المقدسة ذات الستمئة وثلاثة عشرا ناموسا المكتوبة بها نصب عليه اللعنة ، وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة وليكن ملعونا ومغضوبا نهارا وليلا وفي نومه وصبحه، ملعونا في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله ونرجو من الله أن ينزل عليه غضبه "[4].

(*)– **ابن جبريل**: رجل ديني ماروني ولد في 1577م، في اهدن (جبل في لبنان قرب الارز)وتوفي 1648م،وكان الأول من الطلبة ،الموازنة الذين تعلموا في كلية الموازنة التي أنشأها البابا جريجوريوس الثالث عشر في روما عام 1584.وبعد تخرجه في اللاهوت واللغات الشرقية ،قام بتدريس اللغة العربية والسريانية في جامعة روما ،حصل على الدكتوراه في اللاهوت وشترك في كتاب المقدس المتعدد اللغات، عبد الرحمن بدوي ،موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين لبنان ط3، 1993، ص 384.

1– ول ديورانت، قصة الفلسفة ،تر، فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988، ص ص 188 ، 190.

2– علي فهمي حشم، الفلسفة والسلطة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا ط1، 1999، ص42.

3- محمد علي ابو ريان ،تاريخ الفكر الفلسفي،ج4، دار المعرفة الجامعية مصر(د ط) 1996، ص 95.

4– منذر شباني ،سبينوزا واللاهوت، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب ، سورية، (دط)،2009،ص19.

إن هذا الحرمان والطرد الذي تعرض له سبينوزا من قبل بني جنسه وطائفته قابله بصدر رحب ، لم يتأثر بهذه العقوبة بل واصل في نشر أفكاره ومبادئه الفلسفية وإن كان في البدء يسير بتخفّ خوفا من تعرضه لعقوبة أكبر. إنّ تطبيق حكم الطرد على سبينوزا لم يكن بسبب ما قاله عن الله أو العقيدة اليهودية ، وإنما كان بسبب أفكاره التحررية والتي تدعو إلى التفكير بحرية ،كما أن هذه الأفكار قد مست الجانب السياسي والاقتصادي، وكان أكبر رجال اليهودية خائفين على مصالحهم الخاصة لذلك قدموا رشوة لسبينوزا للعدول عن أفكاره ، إلاّ أنه رفض كل العروض المتقدمة له وأكّد بأنها تحد من التحرر الفكري وتقييد العقل ما يجعله يعود إلى الطبيعة الأولى، والتي كان العقل فيها يسير وفق الأهواء والغرائز فلم يكن مبتعدا كثير عن الحيوان وهذا ما جعل سبينوزا ينادي بفكرة التحرر الفكري، ثم إن الجالية اليهودية كانت تخشى من وصول تلك الأفكار إلى المسيحية وبالتالي تدخل معها في صراع. إن تلك المعاملة القاسية التي تلقاها سبينوزا من رجال الدين اليهوديون جعلته يرفض هذه العقيدة التي تحتوي في مضمونها على تناقض، ولم يكتف المؤرخون اليهود من البحث عن السبب الحقيقي وراء طرد سبينوزا، وذلك لانهم رأوا بأن الأفكار التي كان ينادي بها لم تكن إلا مجرد أفكار لم تطبق على أرض الواقع، وقد وجد كاتب يهودي وثائق تدلّ على أن طرد سبينوزا "يعود إلى النزاع الحاد بين اليهود حول فكرة خلود العقل، حيث أن الجو الذي نشأ فيه سبينوزا كان معاديا للتفكير الفلسفي، وكذلك أن الاعتقاد بمثل هذه الأفكار عبر عنه اليهود بأنه استهزاء بمعتقدات اليهودية فكان رجال الدين متخوفون من أن يصل الأمر إلى المسيحين فيعتقدون بأن الدين اليهودي ما هو إلا خرافة، وأن اليهود لا يقدسون معتقداتهم "[1].

كانت لليهود أهداف سياسية واقتصادية يسعون للمحافظة عليها بشتى الطرق ، وبروز مثل أفكار سبينوزا فإن هذا حتما يؤدي بزعزعة هذا الاستقرار لذلك كان طرد سبينوزا الوسيلة لتحقيق الأمن، هذا وقد ساهمت عوامل داخلية وخارجية لنبذ سبينوزا الدين اليهودي أما عن العوامل الداخلية فتتمثل في، أنه ترعرع في أسرة كانت مهاجرة بسبب الاضطهاد ولم تجد الاستقرار إلا في نواحي هولندا، وكان اليهود أنفسهم يوقعون الظلم على بعضهم البعض وسيطرة القوي منهم على الضعيف، وقد جعلوا الدين وسيلة لذلك، حيث تظاهروا بأنّ لهم دين ومقدسات لا يجب المساس بها، إلا أنّ في حقيقة الأمر كان هذ الدين مجرد وسيلة لسيطرة على العامة من الناس وقد كان سبينوزا متتبعا لكل ما يحدث في بني جنسه حيث تولدت لديه أفكار لحل هذا النزاع والظلم السائد، في أواسط اليهودية.

1- فؤاد زكريا، سبينوزا، دار الوفا لدنيا للطباعة والنشر،مصر،ط1، 2008، ص243.

إن تلك الأحداث العويصة التي عاشها سبينوزا جعلته يتطلع إلى العقائد الأخرى ويجري مقارنة بين تلك العقائد ،وبعد نفيه من طائفته توجه سبينوزا إلى الانعزال المؤقت عن المجتمع، وقد حاول في تلك الفترة دراسة العقيدة المسيحية وإظهار الفرق بينها وبين العقيدة اليهودية.

ب – موقفه من العقيدة المسيحية: بعد الحكم على سبينوزا بطرد من العقيدة اليهودية، توجه مباشرة إلى الانعزال من أجل مواصلة تأمله الفلسفي ونظر إلى هذا الطرد على أنه بداية حريته الفكرية، وأنه تحرر من جملة القيود التي كان يتعرض لها لو وافق على العروض اليهودية، حيث أن أول ما قام به سبينوزا بعد الخروج من طائفته هو تغيير اسمه، من الاسم الأول باروخ إلى الاسم اللاتيني بندكت، لتفادي أي صراع مع المسيحين، لقد عاش سبينوزا بين أواسط المسيحين يحاول معرفة هذه العقيدة، وفي الوقت نفسه محاولا نشر فكره الفلسفي وفي محاولته التطلع على العقيدة فإنه توصل إلى أن "الإله في المسيحية لم يتصف بالأحوال والتغيرات، مثل ما جاء في اليهودية وأن الله في المسيحية موجودا وخاضعًا لضرورة المنطقية والقانون العلمي، وأن هذا الإله متفقًا في صفاته مع المعرفة العلمية الحديثة "[1].

كان سبينوزا يميل إلى الديانة المسيحية وذلك من خلال إجراء مقارنة بين اليهودية والمسيحية من خلال تعاليم موسى في العقيدة اليهودية، حيث بين أن تلك الوصايا التي جاء بها موسى تحقق المنفعة الخاصة للملوك فقط وكانت تسير وتطبق وفق اهوائهم، حيث أن هذه العقيدة كانت تهتم بالجانب الظاهري للإنسان أي جانب السلوك فقط، أي أنها تهتم بالجانب الحياة الدنيوية فقط، في حين أن التعاليم التي جاء بها المسيح فإنها تهتم بالجانب الباطني للإنسان. إن العقيدة المسيحية تهتم بالجانب الروحي وتؤكد بأن الإيمان لا يكون في المظاهر الخارجية ،وإنما يكون باطنيًا فكانت معظم تعاليم المسيحية تصب في الاهتمام بالحياة الآخرة ،أي أن المسيح قد "تناولت تعاليمه حياة الإنسان الباطنة، وكان الجزاء عنده روحيا أكثر منه دنيويا، وحين حلل سبينوزا الاتصال بين الله والأنبياء فوجد أنه لا يوجد اتصال مباشر بين ذهن الإله وذهن أي أخر سوى المسيح"[2].

لقد جعل سبينوزا مقارنة حول كيفية الاتصال بين الله ونبيّه، فإذا كان الاتصال بين الله وموسى في اليهودية يتم عن طريق التخاطب الذي يحتاج إلى تفسير وتأويل، فإن المسيح كان الاتصال به عن طريق الذهن والذي يكون واضحا فلا يحتاج إلى تحليل أو تفسير، إن هذه المزايا التي تميز بها المسيح عن غيره من الأنبياء جعلت سبينوزا يميل إلى المسيحية وتتمثل مزاياها في كونها

1 – محمد علي ابو ريان المرجع السابق، ص101.

2– فؤاد زكريا، المرجع السابق ص180.

عقيدة شاملة للحياة الدنيوية والآخرة، كما أنها تهتم بالإنسان من جميع النواحي الباطنية والظاهرية، إن اعجاب سبينوزا بشخصية المسيح لم يجعل منه معتنقا للمسيحية، وذلك لأنّ العقيدة المسيحية مثلها مثل اليهودية تسير وفق ميول وأهواء رجال الدين، فقد ابتعدت المسيحية عن تعاليم التي جاء بها المسيح وأصبحت وسيلة لتحقيق منافع لرجال الدين، حيث يؤكد سبينوزا رفضه لذلك في قوله :"لقد دهشت مرارا من رؤية أناس يفتخرون، بإيمانهم بالدين المسيحي أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس ،ويتنازعون مع ذلك بحب شديد ويظهرون أشد أنواع الحقد، بحيث يظهر ايمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة"[1].

بيّن سبينوزا بأن معتنقي المسيحية جعلوا منها وسيلة لسيطرة على بعضهم البعض متخليين في ذلك عن أهم الأسس التي نادت بها العقيدة، وهي الحب والتسامح حيث أصبحت تلك الأسس تتمثل في الجانب الظاهري فقط، ولا يمكن أن تتجسد في الواقع ،حيث بيّن سبينوزا بأن الاختلاف بين اليهودية والمسيحية يكمن في كون أنّ شخصية المسيح تتميز بقوة الإدراك، التي وهبها الله له، وقد استطاع المسيح أن يقرب صورة الله إلى الحواريين وأزال عنها كل للبس وغموض، حيث يقول سبينوزا: " إذا كان موسى قد خاطب الله وجهًا لوجه فإن المسيح قد اتصل بالله مباشرة أي اتصال الروح بالروح"[2].

لم يكن ميل سبينوزا لدراسة العقيدة المسيحية أو التعمق فيها هدفه الوحيد، وإنما أراد إجراء مقارنة بينها وبين اليهودية التي طرد منها بسبب أفكاره المعادية لمصالح رجال الدين وملوك اليهودية، ومن خلال اطلاعه على الديانة المسيحية توصل في نهاية المطاف إلى أن نمط المسيحية في التجسيد لا يختلف عن اليهودية، فالتعاليم الدينية تنص على شيء وتطبيقها من قبل معتنقيها تتجسد في وضع مختلف، إلا أن الفرق بين العقيدتين يكمن في تعاليم الأنبياء ،فإذا كان موسى يهدف إلى الاهتمام بالجانب السلوكي للإنسان، أي الاهتمام بالمظاهر الخارجية، فإن المسيح جاءت تعاليمه شاملة لكيان الإنسان، وقد أعجب سبينوزا بشخصية المسيح وبيّن أن المسيح جاء ليخلّص البشر من الخطيئة، حيث يقول سبينوزا في هذا: "إن الله كشف عن نفسه للحواريون من خلال روح المسيح كما كشف الله نفسه من قبل بصوت خارجي يمكننا أن نسميه صوت المسيح، وهو صوت الله

1- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر، حسن حنفي، دار التنوير لطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005،ص113.

2 - المرجع نفسه، ص،129.

كالصوت الذي سمعه موسى من قبل كما أن لله حكمة تفوق حكمة الإنسان وقد تجسدت في المسيح ، وأن المسيح أصبح طريقا للخلاص[1]

وبهذا يكون سبينوزا قد قام بدراسة المسيحية مستخلصا في النهاية إلى أن شخصية المسيح هي الشخصية التي تسير وفق الطريق الصحيح، وأنها شخصية تهدف إلى حماية البشر وتحقيق لهم السلامة في الحياة الدنيا والآخرة، إلّا أن في النهاية ينظر سبينوزا على أن اليهودية والمسيحية دين واحد إذ يعتقد سبينوزا بأن اليهود بقوا متمسكين بعقيدتهم بسبب اضطهاد المسيحية لهم وهذا من أجل أن تبقى الديانة اليهودية، راسخة عبر الأجيال ومحافظة على معتقداتها وأسسها.

[1]- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، المرجع السابق، ص 129.

المبحث الثاني: فلسفة السياسة عند سبينوزا

يؤكد معظم الفلاسفة عبر مراحل الفلسفة المختلفة، أنّ نشأة الدولة يقوم في الأساس على ما يعرف بالحق الطبيعي والنظام الطبيعي، وإنّ هذا الحق هو عام وشامل لكل الموجودات، وقد كان سائدا في التصور اليوناني القديم والذي يبلغ أوجه في صياغة الفيلسوف والسياسي **شيشرون** Cicern*(106-43 ق ،م)،"حيث يقوم تصوره للحق الطبيعي على أنه المعايير التي تطابق ماهيات وجوهر الأشياء وبالتالي فإنه يصدر عن الحالة الطبيعية الأصلية للإنسان، التي هي الحالة التي تجسد جوهره الخلقي العقلي ويؤكد شيشرون بأنه يوجد قانون حقيقي هو العقل السليم الذي يطابق الوجود المنتشر، في كل الموجودات"[1].

إن الحق الطبيعي في نظر شيشيرون يتمثل في وحدة العقل الإنساني، فبما أن البشر موحدون في العقل فكذلك الأمر بالنسبة للحق الطبيعي وقد ظلت الفكرة نفسها متجسدة في العصر الحديث، إلا أن سبينوزا كانت له نظرة مغايرة لما كان سائدا في الفلسفات الأزلية وحتى فلسفة عصره، إذ يرجع إلى أن نشأة الدولة يعود في الأساس إلى فصل اللاهوت عن مجال السياسة، أي فصل الدين عن الدولة لأن الدين يحد من حرية الفكر، كما أنه يعمل على طمس الأفكار التحررية التي تسعى إلى البحث عن الحقيقية، كما يرى بأن هنالك مجموعة من المقومات التي تقوم الدولة عليها إلى جانب فصل كل ما هو ديني عن كل ما هو سياسي من هذه المقومات، الحق الطبيعي والنظام حيث يقصد به "تلك القواعد التي تتميز بها طبيعة كل فرد ، وهي القواعد التي تدرك بها كل موجود وبتحديد وجوده وسلوكه، حتميا فمثلا يحتم على الاسماك بحكم طبيعتها أن تعوم في البحر ويأكل منها الكبير الصغير وذلك تطبيقا للقانون الطبيعي، أي أن الضرورة الطبيعية هي التي أجبرت ان تكون الحياة تسير وفق القوانين التي تفرضها"[2]. إنّ فلاسفة العصر الحديث يؤكون بأن الحق الطبيعي هو أساس أي دولة ،حيث يفرق **هوبز***Hbbes(1588-1679م)بين" الحق الطبيعي الذي هو حق كل احد في استخدام قوته الخاصة، كما يريد هو نفسه للحفاظ، على طبيعته الخاصة

---

1 -عبد الله السيد، مجلة الاحياء ،الحق الطبيعي ومقاصد الشريعة ،الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب 2016.

*- **شيشرون**:. ماركوس تلليوس (106/ 43 ق.م)خطيب سياسي وفيلسوف وكاتب روماني كان مستمعا وصديق لكبار الأساتذة في الأكاديمية ومدرسة الرواق والمدرسة الأبيقورية حاول تيسير الفلسفة اليونانية، في صور أدبية لاتينية، كان بحكم مزاجه وتعليمه متشككا في مذهب الشك الاكاديمي ولقد أعجب بما في الرواقية من مثل نبيلة رفيعة ولما كان قد ابتكر ألفاظاً، فلسفية باللاتينية . (خلف جراد، المرجع السابق، ص 13.)

2- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، المصدر السابق، 376.

*- **هوبز**: توماس (1588/1679م) فيلسوف مادي انجليزي تأثرت فلسفته بثورة القرن السابع عشر ميلادي كان يعتقد بان المعرفة معناها القوة، وكان يأمل في علاج امراض مجتمعه عن طريق تخطيط بناء عقلي جديد للمجتمع هندسيا، وقد تحولت أفكاره إلى السياسية نظرا للحالة المضطربة التي كانت تعيشها بلاده وقد نشر كتابه الأصول الفلسفية الخاصة بالحكومة والمجتمع. (خلف جراد، المرجع السابق، ص258).

أمّا القانون الطبيعي فهو المبدأ أو القاعدة التي يصل اليها العقل وفق مطلب الحفاظ على النفس"[1]. بما أن الإنسان جزء من الطبيعية فهو حتما يخضع إلى قوانينها وأنه حاول عبر مراحل حياته المختلفة، أن يتغلب عنها و يجعلها تسير وفق أهوائه ، وقد تمكن الإنسان الحضري من تحقيق ذلك من خلال الاندماج مع أفراد مجتمعه، ثم إن اندماج الأفراد تحت لواء واحد يضمن لهم الخير الأسمى ،كما أنه يعمل على المحافظة على بقاء الدولة واستمرارها اضافة إلى ذلك فإن هذا التجمع يحد من سيطرة العقل الذي يغلب عليه الأهواء والميول ،يتفق جميع الفلاسفة القدامى منهم والمحدثين على أن الحق الطبيعي هو مقوم أساسي لبناء وتأسيس الدولة، إلّا أن هذا الحق في نظر سبينوزا غير كاف على اعتبار أنه نابع من ذهن كل فرد وبتالي فإن أي فرد بمقدوره أن يطبقه وفق ما يريد هو حيث أشار سبينوزا إلى أنه يوجد مقومات أخرى أساسية لقيام الدولة، شرط أن لا يتعارض مع الحق الطبيعي وهو أن يفوض كل فرد إلى المجتمع كل ماله من قدرة، بحيث يكون لهذا المجتمع الحق الطبيعي المطلق على كل شيء أي السلطة المطلقة، في إعطاء الأوامر التي يتعين على كل فرد أن يطيعها إما بمحض اختياره وإما خوفا من العقاب ويسمى نظام المجتمع بالنظام الديمقراطي".[2]

حيث يؤكد سبينوزا بأن النظام الذي يجب أن تسير عليه أي دولة هو النظام الذي يجسد الحرية الفكرية وليس هناك أفضل من نظام الديمقراطية، أن ميزة هذا النظام تكمن في تجسيد علاقات ترابطية بين الأفراد والسلطة الحاكمة مما يجعل المواطن على دراية بالجانب السياسي، وكذلك يكون الحاكم على دراية بما يكون في مجتمعه، حيث بين سبينوزا" أن الشكل الأفضل للحكومة هو الديمقراطية حيث أن المواطنين يمنحون السلطة العليا لأنفسهم كشخص واحد، أي أن المواطن الواحد يصوت على كل قانون ورغبته تقريبا هي رغبة الناس (الجميع)،كما بين سبينوزا أن دولة الحق تستطيع تحقيق الديمقراطية المثلى واحتلال الأطروحة السياسية نفسها مع تفسير الأنواع الأساسية الثلاث لدولة الحق، التي تستطيع تحقيق الأهداف المثلى لنموذج ديمقراطية مثلى"[3].

1- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، المصدر السابق، ص 372.

2 - المصدر نفسه، ص 372.

3 -Spinoza.complete.works.transtations.by Samuel Shirley .bag 677.

كان هدف سبينوزا من تجسيد نظام الديمقراطية هو تكوين مجتمع حر يقوم على تبادل الأفكار ويهدف إلى زرع علاقات اجتماعية وطيدة بين افراد المجتمع، فهو بهذا الرأي يخالف هوبز الذي يدعو للحكم الاستبدادي، ويدعوا سبينوزا للحكم الديمقراطي حيث يقول:"كلما اتسعت مشاركة الشعب في الحكم قوي الاتحاد"[1].

إنّ تجسيد الحياة السياسية في المجتمع يحد من سيطرة الحياة البدائية التي كانت سائدة في المجتمع الطبيعي الأول، وهي الحياة التي تنعدم فيها الحرية والنظام ويسود فيها الظلم بالاستبداد حيث يغلب عليها قانون الغاب فلا يوجد فرق بين الحيوان والإنسان، فكان الإنسان ذئب لأخيه الانسان على حد تعبير هوبز، حيث لم تعرف هذه المرحلة معنى الخير الأسمى أو الفضيلة ولا يوجد قانون ينظم تلك المجتمعات الفوضوية، حيث يرى "بأن القانون الطبيعي لا يقيد رغبات الإنسان ، ولا يعارض الصراع بين الناس ولا يمنع الخيانة والبغض أو أي شيء تشتهيه النفس، وإذا كان العقل يهدف إلى إقامة النظام بين الرغبات فهو كذلك في السياسية يهدف إلى إقامة النظام بين الناس فالدولة الكاملة يجب أن لاتحدّ من قوة مواطنيها، إلا إذا أدت هذه القوة إلى الضرر بأفراد المجتمع"[2].

إن هدف سبينوزا من تجسيد نظام ديموقراطي هو تحقيق العدالة والحرية ، إن هذا النظام يجب إن يتولاه حاكم يكون مختار من طرف أفراد المجتمع الواحد، حيث أن الحاكم يجب " أن لا يعارض رأي الفرد كما يجب عليه تنفيذ ما اتفقت عليه الجماعة لأن الفرد يستطيع بكل سهولة مواجهة الخضوع لإرادة الآخر ومشيئته إذ أن الحاكم لا يكتسب الحق في أن يأمر بما يشاء لا بقدر ما يملك السلطة العليا بالفعل فإذا فقدها فقد في الوقت نفسه الحق في الأمر، وتحول هذا الحق إلى من يستطيع الحصول على السلطة والمحافظة عليها"[3].

إن للسلطة نظاما وقوانين خاصة لذى على الحاكم أن يمتثل بتلك القوانين وإن يطبقها على أحسن وجه، محاولا في الوقت نفسه المحافظة على السلطة، كما أنه مجبر على أن يقدم المصلحة العامة على الخاصة، وذلك لأن هدف كل فرد من هذا الاجتماع هو تحقيق الأمن من الخوف والمحافظة على بقائه و هذا العقد الذي يكون بين الأفراد والأسرة الحاكمة يعمل على الحد من سيطرة القانون الطبيعي، مما يجعله يقتصر في جماعة معينة حيث يرى سبينوزا بأن "نجاح العقد يكون مرهون بمنفعته فإذا بطلت المنفعة انحل العقد في الحال ولم يعد ساريا ومن ثم يكون من الغباء أن يطلب الإنسان من الأخر أن يلتزم بالعقد إلى الأبد، دون

1- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة ،مؤسسة هنداوي لتعليم، والثقافة ،مصر ،دط، 2012 ،ص124.

2- الشيخ كامل محمد عويضة، باروخ سبينوزا، المرجع السابق ص125.

3- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، المصدر السابق ص373.

أن يحاول في الوقت نفسه أن بين له أن فسخ العقد يضر من فسخه أكثر مما ينفعه وهذه نقطة مهمة في تأسيس الدولة"،[1]لقد نادى سبينوزا، بضرورة تجسيد النظام الديمقراطي في تأسيس الدولة حيث أن الهدف الأسمى من تأسيس الدولة هو حماية الأفراد وإعطاء لكل حق حقه ،إلا أن تدخل الدولة في جميع شؤون الأفراد يحد من حريتهم مما يجعلهم يسيرون على قوانين السلطة الحاكمة وهذا ما يؤدي بالمجتمع إلى العودة إلى الفوضى أو الحياة الطبيعية الأولى ولتجنب هذا قفد أكد سبينوزا بأنه يجب على الدولة أن لا تتدخل في جميع شؤون الأفراد وخاصة في المجال التعليمي والعقائدي، فكلما قلت "رقابة الدولة على العقل ازداد المواطن والدولة صلاحا ويعترف سبينوزا بضرورة الدولة إلا أنه لا يثق بها ويرى بأن الحكم مفسدة ويفسد حتى الصالحين ولا ينظر بعين الرضى إلى امتداد سلطة الدولة من أجسام الناس واعمالهم وأفكارهم، لان هذا يؤدي إلى توقف نمو الجماعة وموتها"[2]

وبهذا فإن سبينوزا قد بيّن في فلسفته السياسية بأن لدولة أهمية بالغة في حماية الفرد من العقبات الطبيعية وحتى الاجتماعية منها ويكون ذلك من خلال فصل الدولة عن كل ما له علاقة الجانب الديني لأن للدين قوانين تحد من الفكر وتجعله خاضع للأحكام العقيدية، ولذا يؤكد سبينوزا أن تأسيس الدولة يجب أن يكون بعيدا عن اللاهوت وكذلك أن النظام الذي ينبغي أن ترتكز عليه الدولة هو النظام **الديمقراطي*** الذي يعمل على جعل نوع من التواصل بين الفرد والسلطة الحاكمة، إذ أن "الأفراد في تصور سبينوزا يمثلون من وجهة النظر البشرية مفاصل النظام الأزلي في ترتيب هرمي بين الأجزاء والكليات، ومن ثمة يستطيع أن يقبل الاختلافات الطبيعية بين الأفراد من حيث أنها أساسية في الجانب السياسي أن الطابع الذي لا يمحي لهذه الاختلافات الطبيعية يحتم باستمرار تنوع أنواع الوظائف بين الناس في المجتمع وكذلك تنوع في الآراء"[3].

ومن هذا المنطلق فإن سبينوزا يرى بأن الفروق بين الأفراد يؤدي إلى التنوع في نمط التفكير وتنوع العمل بين الناس لذى فإن النظام الأنسب لذلك هو تجسيد الديمقراطية الذي يسمح للإفراد بتعبير عن أفكارهم وتجسيد أعمالهم دون قيد .

---

1 – سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة، المرجع السابق ص ص 370، 371.

2 – الشيخ كامل محمد عويضة، باروخ سبينوزا المرجع السابق،ص127.

3– ليوتشراوس، جوزيف كروبسى، تاريخ الفلسفة السياسية ،ترجمة محمود السيد احمد،ج1 المجلس الاعلى للثقافة، (دط) القاهرة،2005م،ص، 668 .

(*)– **الديمقراطية** :لفظ مؤلف من لفظين ،يونانيين هما ديموس وتعني الشعب ،وكراتوس وتعني ،السيادة، فمعنى الديمقراطية اذن هي سيادة الشعب وهي نظام سياسي تكون فيه السيادة للجميع المواطنين (ينظر :جميل صليبا ج1،المرجع السابق ص ص 569، 570).

المبحث الثالث: علاقة الدين بالسياسة عند سبينوزا:

ينطلق سبينوزا في فلسفته الدينية من فكرة أن الدين ظاهرة نسبية، إذ لا يمكن تعميمه على الجميع وقد فرق بين الدين والتدين ، حيث يرى بأن الدين هو كل ما يتعلق بوجود الله ، والأسس والمقومات التي تقوم عليها كل عقيدة، أما التدين فيتمثل في تلك الممارسة البشرية التي يقوم بها الفرد في عبادة الله، وهي عمل خاص يقوم به كل فرد على حدة، متبعا في ذلك مقومات العقيدة التي يعتنقها، وقد تميز سبينوزا بنظرته الرافضة لكل العقائد الدينية وخاصة اليهودية ، كما بين رفضه للطرق التي تطبق بها المسيحية، لقد كان رفض سبينوزا لتلك العقائد بعد دراسته المتعمقة للكتب المقدسة التي جاءت بها العقائد، حيث توصل في نهاية المطاف إلى أن هناك فرقا شاسعا بين ما يوجد في النص المقدس وبين ما يطبق على أرض الواقع، وخاصة ما يقوم به رجال الدين من مخالفة لما وجد في الكتاب المقدس، لذا أكد سبينوزا بأن الدين يجب أن يتماشى مع سلوك وأفعال الناس وأن تخالف أفعالهم وأقوالهم ما وجد أو نص عليه في النصوص المقدسة ، وبين بأن جملة القيود التي تفرضها الكنيسة على الناس بأنها قيود لا تراعي مصلحة العامة من الناس، فمعظم رجالها اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق مبتغيا تهم وأهدافهم الخاصة دون النظر إلى المصلحة العامة حيث أن تلك القيود التي تفرضها تعمل على طمس الحرية الفكرية، والتأمل الفلسفي الذي يلعب دورا هاما في النهوض بالفكر وجعله في مكانته العليا، وقد فرض رجال الدين هذا القوانين مشرين في ذلك أن كل القوانين الدينية ذات مصدر إلهي، وأن كل ما هو الهي يجب أن يطبق ويطاع، وأن عدم تطبيق القوانين الدينية هو تمرد وعصيان للإله، لقد نادى سبينوزا بفكرة الحرية المطلقة وراء بأن لدين قيود يجعل هذه الفكرة منعدمة من الوجود ، وبين بأن الجدير بتحقيقي هذه الحرية هو تأسيس نظام سياسي يعمل على تحرر الفكر من القيود الدينية، ويكون ذلك من خلال انشاء كيان الدولة التي تعمل على تحقيق تلك الكماليات والأهداف التي يرمي كل فرد الى نيلها، بحيث أن جميع الأفراد قد تنازلوا في بداية التكوين للمجتمع على جزء من حقوقهم الطبيعية، من أجل الحصول على بعض الكماليات ، منها الحرية الفكرية إن هدف سبينوزا من تجسيده لفكرة التحرر الفلسفي أو الفكري هو إعطاء العقل صورته الكاملة، وكذلك تجريده من الخرفات والأساطير التي طال ما عمل بها الإنسان في العصور الغابرة، وتوجيه نحو العلم والمعرفة بدلا من الجهل والتخلف، ويرى سبينوزا بأن تأسيس الدولة وحده غير كاف لتحقيق أهداف الأفراد، إذ يجب على الأسرة الحاكمة وأفراد المجتمع البحث عن النظام المناسب لذلك، حيث بين بأن أفضل نظام هو النظام الديمقراطي الذي يتأسس من

خلال الاتفاق الذي يكون بين الحاكم الذي تم تعيينه واختياره، والأفراد الذين تنازلوا عن جزء من حقوقهم الطبيعة للحصول على الحرية الفكرية وكذلك للحصول على الأمن الداخلي والخارجي، حيث يعمل هذا النظام على المحافظة على بقاء الأفراد.

يؤكد سبينوزا بأن أفضل نظام لتحقيق مبدا العدالة والمساواة هو تجسد النظام الديمقراطي، وهو نظام كفيل بتحقيق ما تم الاتفاق عليه بين الأفراد والأسرة الحاكمة، إن هذا الكيان المستقل (الدولة) له قوانين خاصة به وقد وضعت تلك القوانين من طرف مجموعة الأفراد المتنازلة عن حقها الطبيعي، وسلطة الدولة وذلك من أجل تحقيق العدل بين الأفراد والمحافظة على استمرارية بقائهم كدفاع عنهم في حالة وجود أعداء خارج الدولة، وكذلك تعمل الدولة على توفير الحاجات الضرورية وحتى الكمالية لأفراد مجتمعها، ومن واجب الأفراد احترام كل ما تم الاتفاق عليه وكذلك احترام الحاكم وتطبيق تلك القوانين دون اعتراض كما أنه لهم الحق في مخالفتها في حالة ما إذا لم يقوم الحاكم بتطبيق النظام الديمقراطي على أحسن وجه، ثم إن من واجب الحاكم أن يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وذلك من أجل المحافظة على المنفعة العامة التي في حالة ما تم تحقيقيها فإنها تحقق كذلك المنفعة الفردية أو الخاصة حيث يرى سبينوزا " أن المصلحة العامة هي القانون الذي يخضع له كل قانون أخر سواء إن كان الهيًا او بشريًا"[1]، ويشير سبينوزا من خلال قوله هذا أن للمصلحة العامة لها أهمية كبرى ويجب تقديمها على جميع المصالح والقوانين لأن المحافظة على مصالح العامة من الناس هو في الوقت نفسه محافظة على مصلحة الفرد داخل مجتمعه، أي أن مصلحة الفرد تفوق كل شيء ولا يكمن النظر في القوانين الوضعية والالهية إذا كان الهدف الاسمى هو تحقيق مصالح الناس، حيث ينظر سبينوزا إلى الدين كما أشرنا سابقا على أنه أمر خاص يتمثل في علاقة الفرد مع إلهه، وبالتالي فإن مجال الدين يجب أن يكون منفصلا وأن لا يتم إدراجه ضمن شؤون الدولة، وأنّ هذه الأخيرة قد اعتمدت على عدة بنود وأسس تقوم في الأول على تقديم المنفعة العامة عن الخاصة ،أي أن مصالح المجتمع يجب أن تكون هي أولى المصالح التي وجب المحافظة عليها، حيث يشير سبينوزا في (كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة) بأن سلطة الحق مسؤولة على جميع القوانين المتجسدة في المجتمع سواء إن كان قانون وضعي أو إلهي حيث يقول: "إنّ لأصحاب السلطة الحق في تنظيم كل شيء وأن كل قانون رهن بإرادتهم ، لم أكن أعني القانون المدني وحده بل كنت أعني أيضا القانون المتعلق بالشؤون الدينية ينبغي أن يكونوا هم أيضا المفسرين له، والمدافعين عنه"[2].

1 – فؤاد زكريا، المرجع السابق،ص223

2 – المرجع نفسه ،ص231.

إن السلطة الحاكمة هنا هي التي لها حرية القرار في اتخاذ تطبيق مبدأ القانون ولا يكمن لها أن تهتم بتطبيق القوانين الاجتماعية الخاصة بأفراد المجتمع فقط وإنما عليها مراعاة كل القوانين الدينية منها والمدنية، لذا فإنه من واجب السلطة التدخل في الشؤون الدينية ومراقبة قوانين التي يؤكّدها الدّين، حيث يرى سبينوزا بأن القانون الديني لا يمكن تطبيقه إلا بإرادة الحاكم، والسلطة الحاكمة هي من تقرّر متى وكيف يتم تطبيق القوانين الدينية، لكي لا تسير العقيدة الدينية وفق أهواء ورغبات رجال الدين ، وقد بين سبينوزا بأنه "لا يوجد حكم إلهي خاص يمارسه الله على البشر ويتميز عن الذي تمارسه السلطة السياسية ،وإنما له ممارسات للعبادات الشرعية وأفعال التقوى الظاهرة يجب ان تتفق مع سلامة الدولة ومصلحتها"[1].

وبهذا يكون سبينوزا قد أكد أن جميع القوانين التي تقوم عليها العقيدة الدينية يجب أن تكون خاضعة إلى المراقبة المستمرة من طرف السلطة الحاكمة، إذ يقتصر القانون الديني على تلك الأفعال التي يقوم بها الفرد لا يجب أن تتعارض ومصالح الدولة، فمن الواجب تقديم مصلحة الدولة عن المصالح الدينية، حيث جعل سبينوزا لدّولة مكانة وأهمية كبيرة وبيّن أن لدولة دور كبير في تنظيم شؤون الأفراد الدينية والاجتماعية، بوصفها نظاما سياسيا ولها مسؤولية كبيرة في توجيه رعاياها إلى الطريق السليم، وأكّد سبينوزا بالفعل أنه منذ اللحظة التي يتنازل فيها الأفراد لدولة عن جزء من حقوقهم في سبيل تحقيق المزيد من المصالح وتجسيد فكرة التحرر الفكري ،الذي بفضله تصبح الدولة هي المسؤولة عن المستوى الاخلاقي والاجتماعي لمواطنيها واذا ظهر أي انحراف في سلوك هؤلاء المواطنين فمن الواجب أن تلام عليه الدولة ذاتها لا الأفراد.[2]لان الدولة وضعت قوانين، وبتالي فهي مجبورة أن تطبق تلك القوانين وبشكل الذي تم الاتفاق عليه بينها وبين الفيئة الاجتماعية، إن الدولة في نظر سبينوزا ماهي إلا كيان تم تأسيسه من أجل تحقيق الخير الاسمى والمنفعة العامة وللمحافظة على بقاء الأفراد، ومع هذا فلا يمكن لدولة أن تتدخل في كل الشؤون الأفراد الخاصة لأن هذا يحد من حريتهم،، لذى فإن سبينوزا يؤكد على أن المجال الخاص لدولة يكمن في وضعها للقوانين المتفق عليها من طرف مجموعة تحت اسم العقد الاجتماعي، الذي يهدف كل فرد منه إلى المحافظة على بقائه واستمراره، "إن الدافع و النزوع عند سبينوزا، لكي يستمر في وجود وبقاء الذات وهي خاصية لكل شيء في الكون والإنسان ببساطة هو مثال لذلك وهذا مثال لنجاح سبينوزا في توافق الأخلاق عنده مع مهذبه بأسره، فالإنسان يرغب في أي موضوع يستحسن هذا الدافع ويؤدي به إلى

1 – فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص442.

2– المرجع نفسه، ص231.

حالة من الكمال يطلق عليها اسم الخير، ويجد الشعور الذي يلازم الانتقال إلى هذه الحالة الأعلى من التي تسبب اللذة" [1]حيث أن ، أي إنسان يهدف إلى تحقيق الخير الأسمى لذاته ، وهذا ما يجعله يشعر بنوع من الكمال .

هذا وقد بين سبينوزا" عكس ما كان سائد عند الفلاسفة من قبله والذين يؤكدون على أن أصل الدولة يكمن في التأسيس الإلهي مثل حكومة اليهود الدينية في العهد القديم التي تستمد سلطتها من إرادة الله، وتنظيم السلوك البشري، من كل وجه وأكد سبينوزا أن المؤسسات العبرية الموصوفة في الكتاب المقدس ،كان الهدف منها العبرانيون القدماء فقط"[2].

إن الدولة عند سبينوزا توجد من تأسيس البشر ووضعت من أجل العمل وفق نظام محكم يكون بين الأفراد، مما يجعل المجتمع أكثر تحضرا بعيدا عن الفوضى التي كانت سائدة في العصور الأزلية ، أراد سبينوزا بهذا القول أن يؤكد بأن أصل نشأة الدولة لا يرتبط بحكم الإله أي أنها ليست ذات مصدر إلهي لأنها من تأسيس البشر فيما بينهم ، وأن الأحكام الدينية التي تقررها العقائد الدينية لا تحمل بالضرورة أحكام مدنية تخص الجانب السياسي، لأن للحاكم والرعية الحرية في اختيار والاتفاق على القوانين التي تسير عليها الدولة والقوانين التي يجب على الافراد تنفيذها، كما بين سبينوزا بأن" الدول السياسية الحديثة ليست ذات مصدر إلهي ،ولا يمكنها أن تزعم بأنها تحكم بسلطة الكتاب المقدس"،[3]لأن تجسيد مثل هذه النظام من قبل الدولة يؤدي حتما إلى الحد من الحرية الفكرية وحتى الاجتماعية ما يجعل أفعال الأفراد وحتى أفكارهم مرهونة بما تقدمه الدولة في ظل تجسيد مبدا أنها ذات مصدر سماوي ،وعليه فهو يؤكد بأن مصدر أي دولة هو ذات مصدري بشري يقوم على العقد المشترك بين من اختير لتطبيق تلك البنود وبين العامة من الناس المتنازلة عن بعض حقوقها وتهدف إلى تحقيق حقوق ومنافع أخرى تكون في ظل الدولة المسؤولة عن ذلك ، وعلى جميع مجالات الحياة الاجتماعية وخاصة الدينية فهو أي (سبينوزا)يؤكد أن" لحكام الدولة الدنيويين السلطة العليا

1- وليم كلي رأيت ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،ترجمة ،سيد احمد، التنوير لطباعة والنشر ،لبنان ط1، 2010، ص 126.

2- وليم كلي رايت ، المرجع السابق ص 129.

3- المرجع نفسه ،ص ن.

في كل مسائل القانون بما في ذلك الاشراف الخارجي على العبادة والشعائر الخارجية للدين، وبخصوص هذه المسائل يجب على الرؤساء الدنيين طاعة السلطة الدنيوية"[1].

إن وظيفة الدولة في نظر سبينوزا بأنها تقوم الإشراف على المسائل المتعلقة بالجانب الديني ، وتقوم بتحضير كل ما يجب احضاره في تجسيد بعض الطقوس والعادات الدينية التي يقوم بها رجال الدين، أي أن الدولة لا يجب أن تفرض سيطرتها على السلطة الدينية، بل على العكس من ذلك تساهم في القيام بكل ما تريد سلطة الكنيسة أن تقوم به، إلا أن الدولة يجب عليها التدقيق في كل عمل نقوم به السلطة الدينية، كما أن على رجال الدين ومن يمثل سلطة الكنيسة أو السلطة الدينية طاعة كل أوامر السلطة المدنية ،وأن لا يعارضوها كما عليهم تطبيق ما تمت الإشارة اليه من قبل السلطة ، فمعارضتهم لقوانين الدولة يعتبر رفض لكيان السلطة وتمرد على قرارات الحاكم وكذلك المجتمع لأن في نهاية المطاف أن الحاكم لم يقوم بوضع القوانين من ذاته وإنما كانت تلك القوانين من خلال اندماج رائي أفراد المجتمع مع رائي الحاكم وسلطته حول القوانين التي تخدم الطرفين، وقد بيّن سبينوزا بأن من حق الدولة أن تشرف على جميع الأعمال التي تمارسها السلطة الدينية ،وتقوم بتقديم خدمات لها وكل ما يخص العقيدة من أجل نشر فكرة دينية معينية ،"لكن الدولة لا يجب أن تنفق على أي معبد لدين ولكن يمكن للجماعة أن تقوم بذلك بنفسها ويجب أن تملك الدولة كل العقارات ويجب أن تسدد ايجارات ونفقات الحكومة كلها".[2]

إن الدولة هنا مسؤولة عن كل ما تريد السلطة الدينية أن تقوم به وتوفر لها الجو المناسب لذلك إلا أنه يكون الدعم المقدم لسلطة الكنيسة من قبل السلطة الدنيوية يكون دعما معنويا فقط إذ الكنسية هي التي تتحمل أعباء المعبد ولا تمنعه الدولة من ذلك، لأن في نظر سبينوزا أن العقد الاجتماعي الذي تم الاتفاق عليه ينص على تحقيق أهداف وتلبية الحاجات الضرورية والكمالية للإفراد ولم يعرج على أي قانون يتعلق بالدين" حيث يصر سبينوزا ضد السلطات الدنيوية والكنائس المسيحية والمحافل اليهودية، على أن العبادة الداخلية لله والورع لا يكونان متضمنين في العقد الاجتماعي ،إن حرية التفكير والنشر حق لجميع

1- وليم كلي رايت ، المرجع السابق ، ص، 129.

2- المرجع نفسه ،ص ،129.

الباحثين وهذه الحرية ضرورة بصورة مطلقة لتقدم العلم و الآداب الحرة ،فلا أحد في العالم يستطيع أن يسن قوانين الدولة الدينية المقدسة .إن الغاية الحقيقية للحكومة هي الحرية"[1].

إن الحرية الفكرية لا يمكن أن تتجسد إلا في نظام يقوم على الحرية المطلقة، إذ أن الحكومة وضعت أو تأسست من أجل العمل على هذا المبدأ مبدا الحرية الفكرية والتأمل الفلسفي الذي يقود العقل إلى كمال صفاته العليا، ويتمثل هذا النظام في النظام الديمقراطي الذي يبنى على أساس التبادل في الآراء بين الحاكم والمحكومين إذ يعتقد سبينوزا "أن الديمقراطية هي الصورة الطبيعية والأكثر توافقا مع الحقوق الفردية من كل صور الحكومة، ومن المستبعد أن تكون هناك قرارات لا عقلية في الديمقراطية، لأنه من المستحيل في الغالب أن تتفق أغلبية الناس على تخطيط عقلي ومن يطع هذه الدولة يكن حرا لأنه يعيش وفق قوانين عقلية ومخططة من أجل الصالح العام"[2].

إن جملة القوانين التي يسنها النظام الديمقراطي هي قوانين عقلية منطقية تهدف إلى تحرر العقل مما كان سائد فيه من جهل وأساطير وتفكير ساذج ،كما أنها تعمل على تخليص العقل من التفكير في الاهواء والرغبات ،وميوله ما يجعل الفرد يتصرف بشكل أناني مع غيره من الأفراد ،ومع تجسيد هذ النظام فإن الفكر يتجه إلى طريق الصواب معتمدا في ذلك على الإدراكات الذهنية والعمل على تطويرها وصولا إلى اكتشاف المجهول ، والحصول على معارف يقينية وحقيقية ثم إن تطبيق الحرية الفكرية يزيل الغموض الذي كان سائد في الكون ويجعل من الفرد عالما بكل الموجودات التي حوله، ولا يحصل على تلك الحرية المطلقة إلا بوجود الديمقراطية ويعتبرها سبينوزا أنها "أفضل النظم إذ انها هي أكثر النظم السياسية استجابة لحرية الأفراد، وايضا فإن سبينوزا يشجب الأفعال اللامعقولة التي تصدر عن الحاكم أو المحكومين في ظل النظام الديمقراطي"[3].

وبهذا يكون سبينوزا قد بين بأن النظام الجيد لتحقيق التحرر العقلي هو النظام الديمقراطي، كما لا تقتصر الحرية على الفكر فقط وكذلك تلمس الجانب الديني ،إذ أن هذا النظام لا يعارض ما تقوم به الكنيسة من نشر للمعتقدات الدينية، حيث أشار سبينوزا بأن الدين هو معتقد يخص الإنسان نفسه فقط، وأن التدين وهو عمل يمارسه الفرد من أجل التقرب إلى معبوده، وإذا كان للدين أسسه وقوانينه الخاصة به وهي تدل على أن الله موجود وأن وجوده أزلي ومطلق ،وأن هذا الموجود الأزلي هو الحق

1-وليم كريت المرجع السابق ص128

2-المرجع نفسه ص128.

3 – محمد علي ابوريان، المرجع السابق، ص 124.

بالعبادة من غيره وأن جميع الموجودات لها علة في الوجود ولا يكمن أن يوجد شيء من العدم إلا وجود الله الذي وجد من العدم، إن هذا الجوهر الثابت قد أوجد الكون ومن خلال اثبات أو تعرف الإنسان على من أوجده و أوجد هذا العالم فإنه ينتقل إلى التطلع أكثر إلى ذاته وكل ما يوجد حوله، ثم يعمل على أن يسود هذا العالم المتوحش بنوع من النظام لسيطرة على الأهواء وراغبات التي تسيطر على كيان كل فرد بطريقة غريزية ،وقد تحرر الإنسان من هذا المجتمع الحيواني بفضل استخدام عقله وتفكيره في انشاء من يقوم بتحقيق ذلك ،فكان أول ما اهتدى اليه الإنسان في اندماجه مع غيره من البشر هو عقد اتفاق بينهم والتوصل إلى حل يحقق ويحمي جميع حقوقهم وواجباتهم ووجدت بذلك كيان الدولة التي تطبق كل ما تم الاتفاق عليه، في ظل نظام ديمقراطي يكرس مبدا الحرية ،حيث يشير سبينوزا إلى أن "أي قوانين موجهة ضد حرية الرائي والتعبير إنما توقع الضرر بالعقول الطيبة أكثر من العقول الشريرة ، وإن مثل هذه القوانين السيئة سوف لا تكون ذات جدوى في قمع المجرمين والسفهاء وتأديب المنحرفين."[1]

إن عدم تجسيد الحرية في المجتمع يجعل الفرد يعود إلى النمط الطبيعي من الحياة الذي كان سائد في مراحل الأولى للإنسان الطبيعي الذي لا يختلف كثيراً في نمط معيشته عن الحيوان، حيث تتغلب عليه غرائزه كما أن دور العقل في هذه المرحلة يكاد ينعدم لاقتصار تفكيره على متطلباته الضرورية فقط وبدأ شكل الحياة يتغير من مجتمع متوحش طبيعي إلى مجتمع بدائي ، وهولا يختلف كثيرا عن الأول إلا من خلال نمط المعيشة المستقر ،ثم المجتمع المتحضر وهو اندماج الأفراد تحت لواء واحد يضمن لهم الأمن وتوفير الحاجات الضرورية والكمالية ،وبعد اكتساب أو حصول الأفراد على هذه المطالب الأساسية ، فإنه حتمًا يفكر في أنجع الطرق التي يمكن أن توصله إلى التطلع أكثر لكل ما يجري حوله ، ويكون ذلك كله تحت إطار الدولة التي تعمل على توفير كل متطلبات أفرادها متبعة في ذلك النظام الحر لقد بين سبينوزا بأن لدولة أهمية في تنظيم وتوجيه الأفراد إلى ما يحقق المنفعة، وذلك من خلال تقديم المساعدات المادية والمعنوية لهم إلا أنه في الوقت نفسه يرى بأن على الدولة عدم التدخل في الشؤون الخاصة للأفراد، وخاصة في المجال التعليمي لأن ذلك يحد من حريتهم الفكرية ،التي تمثل الأساس الذي يجب على كل فرد ممارسته داخل الدولة دون اعتراض ،لأن الغاية من تجسيد نظام ديمقراطي في الدولة هو تحقيق التحرر الفكري، كما أن العمل بهذا المبدأ (التحرر الفكري) يكون بعيدا عن القوانين التي تفرضها سلطة الكنيسية على العامة من الناس، إن مسألة الدين والتدين في نظر سبينوزا أمر يخص أو يعود إلى كل فرد على حدا ،فلا يمكن أن يجبر الأفراد على اعتناق الدين، حيث أشار سبينوزا إلى أن

1 – وليم كلي رايت، المرجع السابق، ص 126.

العقائد الدينية الظاهرية والتي كان الهدف منها ليس تجسيد للدين المعتقد ، وإنما كان يهدف إلى اظهار أن لكل طائفة لها طقوس وعادات دينية تميزها عن المعتقدات الأخرى ، فلم يهتم رجال الدين بتوصيل الدين بصورته الصحيحة إلى العامة من الناس وإنما كان هدفهم هو اظهار أن لهم عقيدة مقدسة ،إن هذا الاختلاف بين ما جاء به الكتاب المقدس وبين ما هو متجسد من قبل رجال الدين جعل سبينوزا يعارض كل العقائد الدينية يؤكد بأن الدين يتمثل في العلاقة بين الله والإنسان ، وأن الإنسان يتوصل إلى عبادة الله عن طريق العقل الذي يتأكد بواسطته على وجود الله، فهو بهذا لا يحتاج إلى معجزات التي تعتبر خارقة للعادات كما أنها غير منطقية ،فالإيمان بوجود الله لا يرتبط بوجود دلائل حسية وإنما من خلال التفكير الحر يكتشف إلى أن هناك من أوجد الوجود، كما أن القوانين التي تسنها الكنيسة على الأفراد هي قوانين جائرة وتخدم مصالح رجال الدين وسلطة الكنيسة ، لأن هدف الكنسية ليس تعريف الناس بالدين والتدين وإنما هدفها هو ردع وتخويف الأفراد من أجل السيطرة عليهم وفرض عليهم القوانين التي تتماشى ومصالحها، إن هذا النمط من القوانين الظالمة جعل سبينوزا، يؤكد على ضرورة فصل كل ما هو ديني لاهوتي عن كل ما هو سياسي، لأن سلطة الكنيسية تعمد على قوانين غير عادلة كما أنها تؤكد بأن كل سلطة مصدرها إلهي وأن كل ما هو إلهي يجب الخضوع التام له، وهذا ما يجعل العقل يرجع إلى ما كان عليه سابق ،أي فكر خاضع لسيطرة والأساطير التي تعقه عن ممارسة وظيفته الفكرية ، لذى فإن سبينوزا يرى بأنه يجب على السلطة الدينية عدم التدخل في المناهج التي يسير عليها الفكر، وعلى الدولة في ذلك أن توفر كل المساعدات اللازمة من أجل التفكير الحر بحيث تكون قضايا الفكر والسياسة بعيدة أو منفصلة عن سلطة الكنيسة، "حيث تستند نظرية سبينوزا السياسية في فلسفته العامة إلى أنه ينبغي دراسة المشكلات السياسية والاجتماعية دراسة علمية بعيدا عن الأغراض الاخلاقية والدينية ،فإذا أردنا أن يقوم مجتمعا على أسس فإنه ينبغي أولا ،أن نفهم الناس من حيث أنهم كائنات عضوية فلا نرسي سياستنا على مفاهيم مثالية عن الطبيعة البشرية ،ولا على قواعد أخلاقية لا تعبر إلا عن أذواقنا الذاتية وانفعالاتنا السلبية"[1].

إن السياسة في نظر سبينوزا تهدف إلى تكوين مجتمع متكامل تسود فيه الروح القومية ويتجسد فيه مبدا العدالة والمساوة بين الافراد، حيث يتمتع كل فرد فيه بقدر كبير من الحرية، لذا فإنه من الضروري أن تبنى مقومات السياسة على أسس تكون بعيدة عن مجال الدين الذي إذا ما اندمجت السياسة فيه فإنها تفقد طابعها الحر ، وتصبح السياسة رهينة للقوانين الدينية والتي غالبا

1- ابراهيم مصطفى ابراهيم ،المرجع السابق ص 208.

ما تكون غير عادلة ، ولا تهتم بتحقيق المصالح العامة بقدر ما تهتم بتحقيق المنفعة الخاصة، ولذا فإنه يجب على الدولة أن تحدد جملة المبادئ التي تقوم عنها منفصلة بذلك عن المجال الديني وفي هذا يؤكد سبينوزا، "بأننا لا نستطيع أن نحقق فكرة وافية عن المبادئ الضرورية التي تقوم عليها الدولة ،إلا إذا حصلنا على فكرة وافية عن مبادئ الفلسفة الطبيعية،(فيزياء وعلم النفس) فإن كل ما يحدث في المجتمعات البشرية من تغيرات إنما يحدث وفقا للقوانين ضرورية ولذلك فخلاص الإنسان يعتمد على فهم هذه القوانين والسعي إلى تكيف حياته معها"[1].

أي أن القوانين والمقومات التي تقوم عليها الدولة يجب أن تكون مدروسة دراسة علمية ونفسية يجب أن تكون خاضعة لتفكير العلمي والعقلي والفلسفي الدقيق، وهذا ما يجعلها قوانين يقينية يمكن الاعتماد عليها دون الشك فيها، كما أن المتجمع في تغيير مستمر ويرجع هذا التغيير إلى القوانين الطبيعية التي يخضع لها المجتمع وهي تغيرات خارجة عن إرادة أفراد المجتمع ثم إن هدف الأفراد في هذه النقطة الحاسمة، يكمن في فهم وتفسير هذه القوانين ومحاولة التمشي معها وجعلها تتماشى وفق آرائه ونظرياته ،وبما أن الإنسان ذلك المركب من الأحوال وله صفة التناهي حيث يرى سبينوز "بأن الإنسان حال متناهي من أحوال الله أو الطبيعة بما هي كل، وبقدر ما يزداد تفكيره وضوحًا وتمايزا أي كفاية فإنه بذلك القدر يزداد كمالًا وبناء عليه ينبغي أن يكون هدف الدولة الأساسي توفير الأسباب لكي يمارس الناس التفكير الواضح، والمتمايز الذي يتمثل في اكتشاف النظام الضروري للكون بواسطة الاستدلال المنطقي فالمعيار لتقيم أي تنظيم سياسي هو مقدار ما يساعد الناس الأحرار على حب الطبيعة وفهمها فهما عقليا"،[2] وعلى الدولة أن تقوم بتوفير المناخ المناسب الذي يساعد الناس على العمل الفكري والذي يهدف به إلى بلوغ الكماليات، ثم إن الأسس أو الركائز التي تقوم عليها الدولة يجب أن تخضع إلى دراسة علمية عقلية ،من أجل بلوغ بالدولة إلى المراتب الريادية والتي تعمل في الوقت نفسه على العمل على كل ما يفيد الفكر وإزالة كل العوائق التي من شأنها أن تقف كحاجز

1- ابراهيم مصطفى ابراهيم، المرجع السابق ص 208.

2- المرجع نفسه ص208

يحول بينه وبين التفكير الصحيح ،ويرى سبينوزا أنه "لكي يرتقي التنظيم السياسي يجب أن يتوافر له التفكير الصحيح الحر أما **الديكتاتورية*** فهي ألد أعداء الحرية الفكرية والسياسية"[1]

إن الدولة يجب أن تعتمد على الفكر الذي يكون مبنيا على أساس الحرية، فالفكر الذي يعتمد على الحرية يكون في قمة الكمال ويحقق الخير الأسمى لدولة.

وعليه فإن العلاقة بين الدين والسياسية في فلسفة باروخ سبينوزا تقوم على مبدأ الانفصال، أي أن لكل من الدين والسياسية مجاله الخاص به ،وذلك لأن كلاً منهما له قوانينه التي يعتمد عليها، حيث تعتمد السلطة الدينية على جملة من القوانين والأسس والتي تؤكد بأنها ليست من وضع الكنيسية وإنما هي ذات مصدر إلهي ، إذ أن تلك التوصيات التي نادى بها الكتاب المقدس ماهي إلا قوانين سنّها الإله نفسه وما على البشر إلا تنفيذ تلك القوانين، وفي حالة عدم تطبيقها فإن ذلك يعتبر عصيان وتمرد على العقيدة التي أقرها الله لعباده على للسان الأنباء والرسل، وأن دور الكنيسة يكمن في تبليغ تلك النصوص وإيصالها إلى العامة من الناس ويجب تطبيقها وعدم مراعاة أيّ مصالح وقوانين أخرى ،وهذا ما يجعل العقل في نظر سبينوزا مقيد وخاضع لكل ما تقول به الكنيسية حتى وإن كانت تلك قوانين لا يوافق عليها العقل ويراها غير منطقية كفكرة ضرورة التصديق بالمعجزات التي يمنحها الله للأنبياء ،فإن سبينوزا يرى بأن مثل هذه القوانين تجعل العقل رجعي ولا يمكن له أن يحقق التطور والتقدم في أي مجال مادام أن السلطة الدينية مسيطرة عليه.

ولكي يتحرر العقل من تلك ما عليه إلا الاندماج في دولة معتمدة على نظام ديمقراطي .إن للسلطة الدنيوية قوانينها وأنظمتها الخاصة بها والتي تختلف عن تلك التي تنادي بها السلطة الدينية، ومن أهم الأنظمة التي تبنى عليها الدولة في نظر سبينوزا هو النظام الديمقراطي.

1 – ابراهيم مصطفى ابراهيم المرجع السابق ص208.

***الدكتاتورية** :هي شكل من أشكال الحكومة وهي النطام الذي تحت سيطرة شخص واحد الذي يتصرف كحاكم وصانع قرار واحدا بحيث يكون فيها الحاكم دكتاتوريا مطلق لا يخضع للدستور أو قوانين المعارضة .اسماعيل ميرشم ،تعريف الديكتاتوريات ،مجتمع مدني،العدد،3425، (د–ب)2011.

للعقل مكانته الخصة به، ويعمل هذا النظام على تحقيق الرقي والتقدم الفكري في جميع المجالات، عكس ما تذهب إليه سلطة الكنسية من قمع وسيطرة فكرية، وفي الوقت نفسه يؤكد سبينوزا على عدم تدخل الدولة بشكل موسع في المجال العلمي للأفراد لأن ذلك يجعل العقل مرتبط بكل ما تقول به الدولة وبتالي فإنه يصبح خاضع لقرارتها ،ولكي يصل الذهن إلى مبتغاه العلمي يجب أن يكون بعيدا عن مجال السياسة ومجال الدين ،إلا أن سبينوزا في هذا المجال يؤكد على ضرورة فصل كل ما هو للاهوتي ديني عن كل ما هو سياسي لأن السياسة في نظر سبينوزا تخدم التفكير بيمنا الدين يعمل على طمس الحرية الفكرية لاعتماده على فكرة أن كل ما جاء به الدين هو مصدر إلهي، وكل ما كان ذا مصدر إلهي يجب الخضوع له وطاعته وعدم رفضه أو نقده وهذ أمر ينقص أو يقلل من مكانة العقل، ويرجع بالعقل إلى ما كان سائد في بداية التمدن للإنسان حيث كان الإنسان لا يعمل بعقله وإنما يتحرك وفق غرائزه وأهوائه، كل هدفه هو اشباع رغباته معتمدا بذلك على أي وسيلة تساعده على ذلك، وقد أكد سبينوزا بأن للعقل دورا كبيرا في النهوض بالدولة والوصول بها إلى أعلى سمات التطور والمعرفة ،ويجب مواجهة كل ما يقف عائق أمام الفكر ففي نظر سبينوزا إن أهم العوائق التي تجعل الأفكار حبيسة نفسها هي ارتباطها وتأثرها بالمجالات المختلفة وخاصة مجال الدين الذي يعمل على وضع حدود للفكر واظهار النطاق الذي لا يمكن للعقل تجاوزه، ومن هنا على الدولة أن تتدخل لتنظيم شؤون الدين والعقل فمن واجب الدولة إذن هو توفير الظروف المناسبة للعمل الفكري، حيث يقول سبينوزا: "إن لأصحاب السلطة الحق في تنظيم كل شيء وأن كل قانون رهن بإرادتهم، لم أكن أعني القانون المدني وحده بل كنت أعني أيضا القانون المتعلق بالشؤون الدينية الذي ينبغي أن يكونوا هم المفسرين والمدافعين عنه"[1].

إن الدولة معنية بتنظيم كل مرافق المجتمع وصيانته في جميع فروعه المختلفة ، و عليها أن تحد من سيطرة الكنيسة وجعل قوانينها تخص رجال الدين فقط ،ولا يمكن لها أن تجبر أي مواطن على اعتناق الدين وتنفيذ قراراتها لأن ليس باستطاعة الدين تحديد أفعال الإنسان، وفرض عليهم ما يجب فعله وما لا يجب القيام به، ويؤكد سبينوزا على هذ ا من خلال قوله: "لا يمكن اتخاذ الدين قاعدة سلوك ملزمة لدولة معينة بل يصبح مجرد تعاليم عقلية شاملة وأقوال عقلية لأن الدين الشامل لم يكن أُعطي للبشر بعد وبذلك ننتهي دون تردد إلى أن الدين سواء كان موحى به بواسطة النور الطبيعي أو النور النبوي، لا تكون له قوة الأمر إلا بإرادة من لهم الحق في الحكم وأن الله لا يحكم البشر حكما خاصًا إلا من خلال اصحاب السلطة في الدولة"[2].

1- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، المصدر السابق،ص421.

2- المصدر نفسه ص، 425.

إن سلطة الدين ليس لها الحق في التدخل في شؤون المجتمع مادام هناك سلطة دنيوية قائمة بذاتها، وهي المسؤولة عن كل ما يتعلق بالمجتمع، و لا يكون لها الحق في نشر معتقداتها إلا من خلال موافقة السلطة المدنية . إن سبينوزا لا يعارض فكرة تدخل الدولة في الشؤون الدينية، لأن الدولة لها حق التدخل في جميع شؤون المجتمع، إلا أن التدخل الذي يرفضه سبينوزا هو تدخل السلطة الدينية في شؤون الفرد وخاصة في المجال التعليمي ،لأن هذ التدخل يعمل على جعل الفرد خاضع لمبادئ الدين، وقوانينه التي تخدم مصالح رجال الدين وسلطة الكنيسة، لذا فان سبينوزا يؤكد على ضرورة فصل المجال السياسي عن المجال الديني، و أن نقوم الدولة بتقديم خدمات لسلطة الدينية، وتساعدها على ممارسة طقوسها الدينية دون تقديم المساعدة المادية أي أنّ الدولة لا تعارض الأعمال التي تقوم بها الكنيسة مادامت منفصلة عن كيان الدولة، ولا تفرض على المواطنين اتّباعها، أي أن الأعمال التي تقوم بها سلطة الكنيسية تخصها هي فقط، وتعارضها الدولة في حالة ما إذا أرادت السلطة الدينية التدخل في شؤون الأفراد وتجبرهم على اعتناق مذهبها، فبما أن قانون الدولة له السيادة المطلقة على جميع القوانين الأخرى، فإن من الحق الدولة أن تظهر للسلطة الدينية الطرق والمناهج التي يجب عليها اتّباعها داخل المجتمعات المسؤولة عنها، لأنّ الدولة تتمتّع بحق السيادة القانونية على كل القوانين وفي هذا يبّن سبينوزا بأن "قانون الدولة يعلو على كل شريعة دينية وهو تعبيرا عن اتجاهه الواضح إلى فصل الدين تماما عن الدولة ،ثم إيثار مصلحة الدولة على كل مصلحة أخرى، حيث لا تترك للسلطة أية قدرة على محاسبة الناس باسمها، متخطية في ذلك قانون البلاد أي أن سلطة رجال الدين ينبغي أن تخضع لسلطة الحاكم"[1].

وبهذا يكون سبينوزا قد أكد أن تقديم مصالح الدولة عن جميع المصالح الأخرى لأن تحقيق الخير الأسمى لدولة هو تحقيقه للأفراد، ذلك على أساس أن الدولة ماهي إلا مجموعة أفراد مشتركة فيما بينها تحت قانون موحد كما بين بأنه ضرورة خضوع السلطة الدينية إلى السلطة الدنيوية، حتى لا تجد سلطة الدين المجال وتسيطر على الأفراد وترجع بهم إلى زمن سيطرة الكنيسية على الأفراد وبتالي حصر الفكر في زاوية معينية، وهذا ما يؤدي بالفكر إلى الجمود بدلا من التحرر وممارسة التأمل والتفكير المنطقي الذي يوصل بالإنسان إلى اليقين المطلق، ثم إنّ الدّين أصبح مجرد مصطلح لفظي لا معنى له، وذلك من خلال سيطرة رجال الدين على الكنيسة، وجعل تلك المعتقدات تهدف إلى تحقيق المنفعة الخاصة لرجال الدين، مما أدى بالكنيسية إلى فقدان مكانتها، وتراجع هيبتها، بعد أن كانت ذات مصدر للقوة، أن هذا الوضع الذي أصبح سائد في العقيدة الدينية جعل سبينوزا يؤكد على أن السماح للسلطة الدينية بممارسة حريتها والتدخل في شؤون الأفراد يؤدي حتما إلى عودة المجتمع الفوضوي لأنه سوف تتضارب مصالح العامة

1- فؤاد زكريا ،المرجع السابق ص 223.

من الناس مع رجال الدين، لذا فإنه يرى بأنه يجب أن يكون مجال الدين بعيدا عن مجال الافراد وشؤونهم السياسية وحتى الاجتماعية، فالدولة حرة بأن تقدم مساعدات معنوية لسلطة الكنيسة لتطبيق طقوسها الدينية في حالة لم تدخل السلطة الروحية في شؤون الأفراد، ويبين سبينوزا هدفه من هذا بأنه "لا يريد أن تترك السلطة الدينية والحاكم الزمني مجاله الخاص الذي يكون له فيه سلطان كامل، فهو يريد من الدولة أن تشرف على كل شيء بحيث تكون مصالحها دائما هي العليا"[1].

إن لدولة الأولوية في كل شيء لذى فهي مسؤولة عن كل ما يحدث داخل المجتمع، لذا فإن من الواجب أن تحد من حرية السلطة الدينية، وتجعل لها مجال خاص بها فهي بهذا لا تعارض ما تقوم به الكنيسة ،ولكن يجب أن يكون في إطار محدود بحيث لا تسطيع سلطة الكنيسة السيطرة وفرض عقيدتها على الأفراد لأن في النهاية لم تعد هناك عقيدة مطلقة، مدام يسطر على رجال الدين الأهواء والميول، لذا فإننا نجد أن سبينوزا قد بين بأن العلاقة بين الدين والسياسية علاقة انفصال لا ارتباط، بحيث يكون لكل من السلطتين الدينية والدنيوية، مجالهما الخاص وأن لا تتدخل السلطة الدينية في المجال السياسي، على أن تتدخل السلطة الدنيوية في كل ما تقوم به سلطة الكنيسة، وذلك لأن لدولة الحق في التدخل في شؤون جميع المجالات وتهدف إلى تحقيق مصالحها وتقديمها على جميع المصالح ويمكن للدولة أن تقدم خدمات للسلطة الدينية دون أن تكون تلك المساعدات مادية، وفي الوقت نفسه لا تعارض بأن يقوم رجال الدين بالعمل على تحقيق مكاسب مادية والانفاق على المعبد. إنّ فصل سبينوزا للدين عن الدولة راجع إلى مجموعة من العوامل تتمثل في الظروف الصعبة التي عاشها مع رجال الدين داخل عقيدته، وقد كان يتأمل في كل ما يقوم به هؤلاء رجال الدين والكنيسة من سيطرة وضغط على الناس ليس من أجل تجسيد وترسيخ الدين في أذهان الناس وإنما كان من باب التخويف والترويع بغية أن تكون هناك سيادة دينية تقدم مصالح ومنافع لرجال الدين، فقد وجد من خلال دراسته المتعمقة للكتاب المقدس أن ما جاء به هذا الكتاب يخالف تماما ما هو ممارس على أرض الواقع، لذا فهو يؤكد على أنه ومن خلال تلك الأفعال التي قام بها رجال الدين اليهود من تشويه لمصدقية الدين بأن يبقى الدين بعيدا عن السياسة، وأن يمارس الدين في حدوده دون أن يتطرق إلى الأفراد ثم أن للدّين أفكار ومعتقدات تعمل على جعل العقل الذي يخضع لها أداة في يد رجال الدين، تسيره وفق أهوائها ، وتعتبر السياسة عامل مهم في تنظيم الحياة البشرية ،والخروج بها من نمط الفوضى والجهل إلى نمط العلم والمعرفة من خلال تجسيد التحرر الفكري والتأمل الفلسفي الذي يحقق الخير الاسمى لكل أفراد المجتمع، بعيدا عن الرجعية والتخلف .

1- فؤاد زكريا ،المرجع السابق، ص223.

الفصل الثالث :فلسفة سبينوزا في ميزان النقد.

المبحث الاول :مؤيدو فلسفة سبينوزا

المبحث الثاني: معارضو فلسفة سبينوزا

المبحث الثالث: سبينوزا راهنا

الفصل الثالث: فلسفة سبينوزا في ميزان التقييم و النقد:

المبحث الأول: مؤيدو فكر سبينوزا:

لم تكن فلسفة سبينوزا تلك الفلسفة التي تعبر عن أراء وأفكار مؤسسها فقط، أو تنص على اشكاليات وقضايا العصر الحديث فقط وإنما كان لها صدى كبير في فلسفة العصر الحديث وحتى في الفلسفة المعاصرة، وهذا لأن فلسفة سبينوزا تطرقت إلى جميع مجالات المعرفة وقد عالجت قضايا لم يسبق الإشارة لها من قبل الفلاسفة والمفكرين من قبله ،ولعل من أبرز الفلاسفة الذين تأثروا بفكر سبينوزا نجد **هيجل***Hegel (1770-1831م) الذي بين بأن فلسفة سبينوزا هي نقطة مركزية في فلسفة العصر الحديث ،وتشكل مركزية الفلسفة الحديثة حيث يقول" إنها نقطة تصالب في ا لعصر الحديث والإحراج هو إما أن تكون سبينوزا أو لا فلسفة، ومتى يبدا المرء بتفلسف فلا بد له أولا أن يكون سبينوزا"[1].

وبهذا يكون هيجل قد بين بأن فلسفة سبينوزا هي النقطة المركزية لبداية الفلسفة الحديثة ،وقد استطاع سبينوزا رغم الانعزال الذي كان غالب على نمط حياته بسبب فكره وتأمله الفلسفي أن يجعل من هذا الفكر المتحرر من كل القيود أن يكون مرجع للعدين من الفلاسفة والمفكرين في العصر الحديث والمعاصر، لقد كانت بدية انطلاقة هيجل من فكر سبينوزا إذ نجد أن هيجل قد اعتمد على نفس المبدأ الذي يتمثل في أن" لكل تعين سلب وأن جميع التحديات عبارة عن سلب، فتحديدك لشيء ما معناه فصله عن دائرة الوجود فقولك عن شيء أنه أخضر يعني فصله عن دائرة الأزرق والألوان الأخرى"[2]، وقد اعتمد سبينوزا على تحديد عناصر الأشياء وتعين صفاتها من أجل نفيها عن انتحال الصفة الثانية فقولنا بأن الأشياء الموجود في الكون يعني أننا نفينا عنها صفة الانعدام فإثباتنا صفة معينة لشيء ما يعني نفيها لضد الصفة الأولى وقد كان هذا المبدأ هو الأساس في

1- جورج طرابيشي، المرجع السابق ،ص 321.

2- ولتر ترستيس ،فلسفة هيجل، ميشيل ميناس، هيجل والديمقراطية، المجلد الثاني ،ترجمة، امام عبد الفتاح امام ،مكتبة مدبولي، دط،1996، ص61،

*- **هيجل**: فيلسوف الماني 1770،ومات 1831،في برلين وقد سجل في الصف العالي للاهوت وكان له في عمر ثمانية عشر سنة وكان قد توفر الجو الجديد مع السن والظروف السياسية ،ليوقظ فيه المواهب العقلية التي كانت لا تزال إلى ذلك الحين غافية، وشرع هيجل يكتب تأملات ومقالات وقد حصل على دبلومه في اللاهوت، عزف عن مهنة القس واتجه إلى أن يصير مؤبدا خصوصيا،(ينظر، جورج ،طرابيشي، المرجع السابق ،ص 721).

فلسفة هيجل، إلا أن هذا الأخير قد أتخذ الصورة المقابلة والتي تتمثل في "كل تحديد هو تعين أو سلب ، فمبدأ سبينوزا هو ايجاب الشيء هو نفيه، أما مبدا هيجل فإن نفي الشيء هو ايجابه أو سلب الشيء يعني وضعه"[1].

فإذا كانت فلسفة سبينوزا تؤكد بأن إذا نفينا عن الشيء حالة معينة فيعني أننا حصلنا على إيجابيات، أما في فلسفة هيجل فأخذت الصورة مبدا مغاير وإن كانت لها نفس الانطلاقة ،ولكن بشكل أخر ،فإنا إيجابية الشيء تكمن عندما نقوم بنفيه من أجل أن لا يتخذ الصورة المقابلة وينحصر في الصفة المنفية عليه، فانفي في فلسفة سبينوزا يتضمن اثبات الايجاب والايجاب يتضمن بالضرورة النفي، فإذا حصلنا على ايجابيات الأشياء فيعني أننا نفينا عنها الجوانب السلبية الأخرى ،وهو الأمر نفسه عند هيجل، وقد تأثر هيجل كذلك بالفكرة التي نادى بها سبينوزا وهي فكرة اللامتناهي ،وقد حصر سبينوزا هذه الفكرة في الجوهر الأزلي الثابت وهو الله والتناهي صفة تخص الموجودات التي لها علة في الوجود، حيث تظهر فكرة اللامتناهي في "أن الشيء اللامتناهي يعني أنه غير موجود، ومن ثمة فإن الشيء المعين هو الشيء المحدد ، ومنه فإن الشيء المتناهي هو الشيء اللامتعين فاللامتناهي ليس هو الذي لا نهاية له ولا غير محدد أو متعين، بل هو المتعين بذاته والمحدود بذاته، وهي فكرة رئيسية في فلسفة هيجل "[2].

إن كل موجود يمكن تحديده هو شيء له علة في الوجود يعود إلى وجود جوهر هو الذي أوجد الأشياء الممتدة منها وغير الممتدة وأنه علة لكل الموجودات، كما أن عدم وجود الموجودات يعود اليه، أي أن هذا الجوهر هو سبب في وجود الموجودات كما أنه علة في عدم وجود الموجودات، فقد أسس هيجل فلسفته من هذا المنطلق. وقد دافع هيجل عن سبينوزا في اتهامه بالإلحاد التي اتهمته بها طائفته اليهودية بسبب نقده للكتاب المقدس ، ورفضه لتجسيد الدين الذي كان مزيف ولم يكن يعبر عن حقيقته، مما أدى بهيجل إلى توضيح فكرة الالحاد الذي نسبت إلى سبينوزا خلال القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، حيث رد هيجل على هذه التهمة من خلالا قوله، "إن هوية الله مع الطبيعة تلغي فكرة الإلحاد فيقول أن الأصح هو القول بأن هذه الهوية تلغي الطبيعة ولهذا يقترح بدلًا من تسمية، مذهبه بالإلحاد أي اللإلهية، أن يسمى **باللاكونية*** أو اللاطبيعية ،بحيث

1- ولترترنس، فلسفة هيجل، المرجع السابق،ص62

2-فؤاد زكريا، المرجع السابق. ص 111.

(*) **اللاكونية**: مصطلح استخدمه هيجل في وصف مذهب سبينوزا القائل بأن الكون لا وجود له في ذاته لأنّ، كل موجود، إنما موجود في الله، فؤاد كامل وأخرون، المرجع السابق ص 532.

لا يكون للكون وجود في ذاته، لأن كل ما يوجد إنما يوجد في الله حيث يقول أن مزاعم اولئك الذين يتهمون اسبينوزا بالإلحاد مخالفة للحقيقة على خط مستقيم، فلدى سبينوزا من الله ،أكثر مما ينبغي"[1] .

و قد بين هيجل أن سبينوزا لم يكن ملحدا ،وإنما أراد أن يبن بأن الكون هو جزء من الله وذلك لأن كل ما يحدث فيه من إرادة الله، وأن الله هو الذي أوجده ،وبتالي فهو خاضع لقوانين التي يفرضها الله وقد وضّح هيجل فكرة الإلحاد ،حيث بين بأن الله عند سبينوزا موجود ولكن ليس بصورة التي يفهما العامة من الناس ،وإنما تحتاج إلى تأمل فكري وفلسفي، وهذا الطابع الذي جعل فلسفة سبينوزا تتميز بالعمق و الغموض تحتاج كل ما تطرق إليه سبينوزا الى التأمل الفلسفي العميق ليصل في النهاية إلى المقصد الحقيقي الذي يريد سبينوزا أن يصل اليه ، وهو اليقين المطلق الذي لا يمكن الشك فيه، وقد تأثر الفيلسوف **انجلز***Emgels (1820-1895م)كذلك بفكر سبينوزا وخاصة الفكرة القائلة بوحدانية الجوهر ،لقد اعتمدت فلسفة سبينوزا على فكرة وحدة الوجود ،وهي فكرة جاءت كرد على فكرة الثنائية الديكارتية، الذي أرجع أن أصل الوجود لا يمكن أن يخلو من وجود الممتد واللاممتد، أي من المادة والتي تمثل الجسم ومن الجوهر الذي يمثل الروح، إلى أن جاءت فلسفة سبينوزا الذي أكد بأن جميع الموجودات متوقف وجودها على جوهر واحد وهو الروح الذي ينحل في الله، وأن هذا الجوهر هو علة في إثبات وجود الأشياء في الكون ولا يمكن أن يوجد شيء مستقل عنه، فهو أصل الوجود كله سواء الوجود المادي أو الوجود الروحي، حيث أن عدم وجود هذا الجوهر في الاجسام يؤدي إلى فساد تلك الاجسام في حين ،أن هذا الجوهر لا يفسد بفساد الاجسام، وهذا ما يجعل وجود الأجسام أو كل الاشياء المادية، متوفقة عليه حيث يؤكد انجلز في هذ الفكرة " بأنه يؤمن بفكرة سبينوزا القائلة بأن الامتداد والفكر صفتان لجوهر واحد لأن الفكرة ليست لها دلالة سوى الدلالة المادية"[2].

.

(*)- **انجلز** فريدريش: ولد سنة 1820، وتوفي في لندن 1895، كانت أسرته تعتنق المذهب اللوثري وكان والده صاحب مصنع نسيج، وقد غدا انجلز منذ سن مبكرة، من الأنصار المتحمسين للهيجلية اليسارية ذات النزعة الكمونية والمناهضة للاهوت، أصبح بعد ذلك اشتراكيا وكتب على النقد الاقتصادي السياسي ،ووضع الطبقة العاملة في انجليترا ،(ينظر جورج طرابيشي ، المرجع السابق، ص99).

1- فؤاد زكريا، المرجع السابق،ص105.

2-المرجع نفسه، ص 105.

وبهذا يكون انجلز قد بين بأن الشيء يعود في الأصل إلى مصدر واحد هو الجوهر ،بمعنى أن الشيء القابل للقسمة والغير قابل للقسمة يعود إلى مصدر واحد هو الجوهر، ثم إن جميع الأفكار التي تتكون في الذهن على ظاهرة معينة، أو شيء معين يكون فهمها أو تحليلها صعبا ومبهم إلا إذا ارتبطت بشيء مادي فقولنا عن المثلث أنه مثلث لا يمكن فهمه أو تحديد شكله، إلا إذا تم تحديده في الواقع وإلا صار لفظ مثلث مبهما وغامضا. وقد جعل سبينوزا علاقة يبين الدال والمدلول من خلال تحليل المصطلحات اللفظية وجعل لها تفسير ماديا وارجاعهما إلى مصدر واحد هو الجوهر، كما أن الفكرة لا يمكننا فهمها إلا بوجود دلالتها المادية التي تجعلها أكثر وضوحا وفهما، ثم إن علاقة الدال بالمدلول كعلاقة الجانب الروحي بالجانب الجسدي، حيث أن وجود الجسد متوقف عن وجود الروح وكذلك الدال متوقف فهمه على وجود المدلول ،بمعنى أن الجواهر تبقى غامضة ومبهمة إلا إذا ارتبطت بالمادية التي تزيل عنها ذلك اللبس .

لقد شكلت فلسفة اللاهوت والسياسة في فكر سبينوزا منعرجا هاما، وذلك لتناولها الجانب السياسي من جهة والجانب الديني من جهة أخرى، رغم أن سبينوزا قد بين بأن الدين يجب أن يبقى منفصلا عن جميع المجالات الأخرى، وأن ينحصر الدين في التدين فقط ، وبهذا يكون الدين أمر شخصي يخص الفرد في علاقته مع الله، لأن وجود الدين في جميع المجالات وخاصة السياسية والمجال العلمي، يؤدي إلى السيطرة على الفكر ويرجع كل الأفعال إلى أسس دينية، كما أنه يحدد ما يجب أن يقوم به الأفراد وما لا يجب أن يفعلوه، وبهذا يكون الدين قد عمل على تقييد العقل والسيطرة عليه، أما في الجانب السياسي فقد بيّن سبينوزا بأن مقومات الدولة يجب أن تتأسس على نظام محكم يجسد التحرر الفكري، ويتحقق ذلك إلا بالنظام الديمقراطي، هذا وقد شمل كتاب اللاهوت والسياسة لسبينوزا دراسة مفصلة حول السياسة والدين، وهذا ما جعل الكثير من الفلاسفة والمفكرين يتأثرون بهذا الفكر الشامل وهو الفكر الذي لفت النظر إلى أهم قضية وهي قضية الدين، وكيف أن الدين يحد من الحرية الفكرية ومن بين الفلاسفة المتأثرين به نجد الفيلسوف **فختة** Fichte*(1726-1814) الذي تأثر بفلسفة سبينوزا ويتجلى ذلك في فكرته عن اللاهوت والسياسية، حيث كان فخت يميل إلى هذ الفكر، وقد" أكمل فخت أخلاقية سبينوزا بنظرية الفعل الأصلي المماثلة لحرية الخطاب الإنساني ومبدأ الانتقال من الله إلى الانسان"،[1] حيث أن فلسفة سبينوزا ،قد انطلقت من عالم السماء إلى

---

1 – ديديه جوليا ،فخت، ترجمة المحامي حسيب النمر، المؤسسات العربية لدراسات والنشر،بيروت،ط1، 1980، ص29.

(*)– **فخت**: فيلسوف الماني ولد عام 1762،وتوفي في برلين 1814،مارس اعمال شتى في مرهقته، اشتغل في مصنع النسيج وقد ابدى منذو طفولته احساس ديني وميل شديد الى التأمل والتفكير (ينظر ،جورج طرابيشي، المرجع السابق ص 418) .

عالم الارض، فأثبت سبينوزا أولا أن الله موجود ثم تطرق إلى اثبات الموجودات الأخرى على أساس أن الله هو علة الوجود، وقد بدأ فخت من هذه الطريقة التي بداء بها سبينوزا ،كما أن فلسفة فخت أكملت نفسها بنفسها من خلال" أنطولوجيا** الكلمة ونظرية الغبطة،*** التي تم شرحها الفريدة من نوعها إلى معرفة النوع الثالث لدى سبينوزا، أكثر من ما تمت إلى الصورة المطلقة لدى هيجل"[1].

وتعتبر فلسفة فخت ماهي إلا امتدادا لفلسفة سبينوزا التي تطرقت إلى جميع المجالات فعالجت كل القضايا السياسية والدينية، هذا وقد نظر الفيلسوف **جيل دلوز** Deleuze Giiles*(1925-1995م) إلى فلسفة سبينوزا على أنها تمس جانب من الغرابة ، حيث يقول: "لنتناول الحالة الاكثر غرابة سبينوزا أنه الفيلسوف المطلق، والاتيقا، هو أكبر كتاب للمفاهيم لكن الفيلسوف الأكثر صفاء في نفس الوقت هو الذي يتوجه إلى الجميع بصورة محددة، تماما يمكن لأي كان أن يقرا كتاب الاتيقا إذا سلم نفسه بما فيه الكفاية، لهذه الريح وهذه النار"[2]. لقد وضع سبينوزا كتابه "الاتيقا"، وكتبه بطريقة لا يستطيع أي فرد أن يفهمه إلا إذا سلم لتلك الأفكار التي يعالجها هذا الكتاب .

لقيت فلسفة سبينوزا قبولًا من طرف الكثيرين من الفلاسفة في زمانه وحتى بعد عصره، وقد كانت الميزة الأكثر تأثيراً على الفلاسفة هي ميزة الحاده الذي بيدو في الظاهر أنه ملحد أما في الباطن فقد جسد الإله بطريقة مغايرة لما كان سائدا في الفلسفة القديمة وحتى الحديثة، وقد بين الفيلسوف **فولتير**Volatlr**(1694-1778م) بأن فكرة الإلحاد التي يقع فيها كثير من الفلاسفة والمفكرين لا تشير إلى المعنى الحقيقي للإلحاد لأن الملحد في نظر فولتير يجب أن يكون ملم بجميع الأشياء حيث يقول فولتير: "إن الملحد مضطر أن يقرا بلزوم كل شيئي مثل ما فعل سبينوزا وعليه أن يقبل بأن كل ذرة من الغبار حتم عليها أن تكون كما هي، وأن توجد بضبط في النقطة التي توجد فيها"[3]، ويؤكد فولتير بأن الإلحاد الذي أتهم به سبينوزا على أنه كان الحاد شامل

(**)- **انطولوجيا**: أحد بحوث الفلسفة الرئيسية الثلاث، وهو يشمل النظر في الوجود بالإطلاق ،مجرداً من كل تعين أو تحديد ،وهو عند أرسطو، علم الموجود بما هو موجود .(إبراهيم مدكور، المرجع السابق، ص63.

(***)- **الغبطة**: سرور دائم لا يعكر صفوه شيء ،كما يراه ارسطو و سبينوزا. (ينظر أندريه لالاند، موسوعة لا لاند، ترجمة أحمد خليل، أحمد عويدات ،منشورات عويدات بيروت باريس ،ط2، 2001، ص 130.)

(*)- **جيل دولوز**: فيلسوف فرنسي ولد عام 1925، ومات 1996، تخرج من دار المعلمين العليا، ودرس الفلسفة في جامعة ليون، ثم في جامعة فنيس وضع اول سلسلة لدراسات في تاريخ الفلسفة،(ينظر جورج طرابيشي ،المرجع السابق ص290)

1-جاك دريدة وآخرون ،مسارات فلسفية، ترجمة ،محمد ميلاد، دار الحوار للنشر ، سوريا،ط1. 2004، ص47.

لكل الجوانب حيث أن اشكالية الملحد، لا يجب أن تتوقف في كونه رافض ،فكرة وجود الله فقط، وإنما يجب عليه أولا أن يعتمد على براهين تثبت ذلك أي تثبت وجود الله أو تثبت عدم وجود الله، هذا وقد اعتمدت فلسفة فولتير على" مبادئ ليست أصيلة أو مبتكرة، وإنما استعار فولتير آرائه، وحججه من اسلافه ومعاصريه واستخلصها من سبينوزا"[1]. وبهذا تكون أسس فلسفة فولتير ترجع في الأساس إلى فلسفة سبينوزا.

إن فكرة الله عند سبينوزا قد لقيت صدى كبير عند الفلاسفة من بعده حيث يبين الفيلسوف هيلر، أن معالم فكرة الله لا تتضح حقيقتها الا بعد فهم جميع الأوجه الأخرى لحقيقة الاشياء ومعرفتها وفهما فهما فلسفيا، حيث يقول ان البحث في الله يستغرق فلسفة سبينوزا من الفها الى بائها"[2]، ويعني بذلك أن فلسفة سبينوزا ترتكز في الأساس على فكرة الله، وتظهرها بصورتها الحقيقية .

ويعتبر سبينوزا أول فيلسوف اهتم بقضية الدين وبين وجود الله بعدة براهين وحجج، حيث لفت انتباه العديد من الفلاسفة وخاصة في مسالة اللاهوت ،إذ أن ما يميز هذه الفلسفة هو تأكيدها على علو اللاهوت وهو العلم ، الذي يضم الدراسة المفصلة للإله على أدلة وجوده، وفي هذا الصدد نجد المفكرة سو، روث تؤكد على قولها بذلك ،"أن فلسفة سبينوزا هي تبرير للاهوت من حيث هو علم وترى بأن هذه الفلسفة ترد على من ينكرون امكان قيام الميتافيزيقا وما تتضمنه من ابحاث تتعلق باللاهوت ،وهكذا تصبح كل فلسفة سبينوزا ،في نظرها مظهرا من مظاهر امكان علم الالهيات"[3]وفي نظر سو روث ،فإن فلسفة سبينوزا هي خير معبر عن علم اللاهوت بكل تفاصيله الدينية والالهية ، وقد شملت فلسفة سبينوزا لكل نظريات الكون وجميع الظواهر التي تحدث فيه معتمدة على العقلية العلمية التي تؤدي إلى الحقيقة اليقينية، وكل ما يحدث في الكون يفسر وفق منطلق عقلي بحت، والذي يهدف إلى تجسيد المنهج العقلي إلى إزالة الغموض والابهام عن جميع الحوادث المدروسة دراسة علمية عقلية دقيقة ، وفي هذا الاتجاه نجد

(**)– **فولتير**: ولد ومات في فرنسا،1694–1778،درس في معهد لوي لوغران وكان خير مؤسسة يسوعية، تعليمية في فرنسا وقد تلقى فيه تربية ادبية ممتازة عمادها اللاتينية ،طبع كتابه الأول بفضل الأباء اليسوعية، جورج طرابيشي، المرجع السابق ص 471.

1 اندريه كرسون ،المرجع السابق ،ص 56

2–فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 102.

3– المرجع نفسه، ص 103.

4–المرجع نفسه،101.

أن انشتين قد "تأثر بفكرة الحتمية التي بينها سبينوزا، وهي الاعتماد على مبدأ الحتمية واخضاع العالم لقوانين دقيقة فضلا عن تحليله العلمي لسلوك البشري ذاته"[1]، و بهذا يكون قد بين أن فلسفة سبينوزا قد اعتمدت على المنهج العلمي في تفسير سلوكيات وافعال البشر ،وقد وضع نظام عقلي علمي دقيق يجعل العقل في أسمى مكانته كما بين الفيلسوف الالماني **غوته يوهان فلينجان فون** (1749-1832) الذي" اقتنع بموضوعية قوانين الطبيعة، ومحرك التطور الذي هو حبيس التطور ،وأراد إلحاق فكرة التطور بمفاهيم سبينوزا التي كان يفسرها على أساس الوجود"[2] أي أنه بين بأن كل القوانين التي تحدث في الطبيعة ورغم اختلافها إلا أنها ترجع في الأصل إلى مصدر واحد، وقد أبدى **برنشفك** Brumschvigg* (1869-1944م)"باهتمام كبيراً بالنصوص التي أعرب فيها سبينوزا عن اعجابه بشخصية المسيح وأكد تبعاً لذلك أن المسيح قد ضرب لسبينوزا المثل بخروجه على اليهودية ورفضه كل عبادات ذات طابع مادي فضلا عن المثل الذي ضربه له بحياته الروحية وتضحيته"[3].

وقد رفض سبينوزا ما كان يجسده رجال الدين من طقوس دينية مخالفة لما جاء في الكتاب المقدس وفي سياق أخر نجد أن الفيلسوف الامريكي **بلانشارد** Blanshard**(1892-1966م) قد تأثر بميتافيزيقا سبينوزا، حيث يمكن وصف هذه" الميتافيزيقا بأنها ميتافيزيقا سبينوزا المتجددة تتعقل بالفهم على أنه إدراك لضرورة"[4].

لقد بنى بلانشارد متافزيقته على إنقاذ فلسفة سبينوزا، وأن ميزة المعرفة عند سبينوزا أنها عقلية تعتمد على المنهج الهندسي ويتطرق فيه سبينوزا إلى تقديم تعريفا للقضية المراد دراستها، مع الاعتماد على البراهين والحجج لإثبات مدى يقين القضية، ومن مؤيدي فلسفة سبينوزا نجد الفيلسوف شيلنغ Schelling(1775-1854م) حيث بين بأنه كل ما توصل اليه سبينوزا من

1--فؤاد زكريا المرجع السابق، ص 181.

(*) غوته يوهان فلينجان فون: ولد عام 1746-1832 وشاعر وعالم طبيعي ،الماني، وقد اثرت آرائه الفلسفية تأثيرا بالغا في الفكر الاوربي وقد اعلى من شأن الفكرة القائلة بان النظرية والتجربة شيء واحد ،في البدء كانت العلة، هذا هو مبدئه الرئيسي ،لنظريته في العالم والمعرفة، وقد كان شغوفا، بالحاق فكرة التطور بمفاهيم سبينوزا.(انظر. روزنتال يودين، المرجع السابق ص ص 312، 322)

2-جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 185.

(*)– **برنشفك** :فيلسوف فرنسي ولد وتوفي في باريس،(1869- 1944)مؤلف عدد من الاعمال في الفكر العلمي والفلسفي، تجلت فيها بوضوح، الخطوط العامة، لموقفه النظري الأصيل ،جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص173.

3– .جورج طرابيشي ، المرجع السابق،182.

(*)– **بلانشارد براند**: فيلسوف امريكي 1896-1996،كان له تأثير على طلبة الجامعة ،وجمع كأغلب معاصريه، بين الفلسفة اللاهوت، جورج طرابيشي ، المرجع السابق، ص 173.

تصورات وأفكار بقيت إلى اليوم، حيث يقوم "أن التصور السبينوزي يبقى إلى اليوم كما يشهد تاريخ الفلسفة المركز الذي يتحرك حوله كل شيء... السبينوزية هي بالفعل المذهب الذي يضع الفكر في سلام وسكون تام، وهي في نتائجها الأخيرة المذهب المكتمل للتقوية النظرية والعلمية"[1]. وبهذا يكون **شيلينغ*** قد أكد بأن فكر سبينوزا يهتم بحرية الفكر وسلامة العقل وخاصة من العودة إلى النمط الذي كان العقل فيه منعدما وقد أهتم سبينوزا بالعقل وجعل له مكانة لأن به نوصل إلى اليقين المطلق ،وأشار إلى إزالة كل العوائق التي تواجهه ومن بينها الدين ،وفي الوقت الذي يرى سبينوزا الدين عائق، إلا أن فلسفته قد قدمت شروحا مفصلة للدين وفكرة الله، معتمدا على عدة براهين وحجج تثبت وجود الله، فهو لم يعتمد على أقوال وتأويلات الأنبياء كما أنه رفض رفضا قاطعا للمعجزات التي اعتمد عليها الأنبياء وإنما بين البراهين العقلية التي بها ندرك وجود الله كما أنها تعمل على جعله قريب من اذهان العامة من الناس، ويأخذون صورة يقينية على أن الله موجود وأنه علة وسبب في وجود هذا العالم الذي يعتبر جزء من الله إن بقاء واستمرار وجود الكون مرهون بالله إذ يرجع أصله وجوده اليه .

وفي هذا الاتجاه نجد تأثر المستشرق **ارنست رينان**** Ernest renanب(1823-1892م)فكرة وجود الله عند سبينوزا حيث يقول :"ربما من هنا شوهد الله من اقرب مسافة"[2] أي أن سبينوزا قد أعطى الصورة الحقيقية والتي تقرب الله إلى فكر الأفراد أكثر وبعد اثبات الله عند سبينوزا وتقريبه إلى الاذهان فقد توصل في الاخير إلى أن الله هو علة الوجود، ثم إن معرفة الله تؤدي بالعقل إلى ممارسة وظيفتيه التفكرية ومنه ينطلق إلى اكتشاف الموجودات أخرى ، وقد أكد المفكر فردينان ألكييه أن سبينوزا قد زكر على الجانب الفكري من خلال تحريره من الأساطير والخرافات التي كانت مسيطرة عليه في زمن ما، حيث يقول: "إن سبينوزا هو من أراد أن يعطي للإنسان بنعمة العقل وحدها جوهرها ما وعدته به الأديان، الحياة الأبدية والغبطة ،فهو إذن اكثر طموحا من هيجل من حيث أنه تطلع لا إلى فهم الدين، واحتوائه في مذهبه بل إلى استبداله وفتح طريق الاستغناء عنه"[3].

1- جورج طرابيشي ،المرجع السابق ص 185.

(*)- **شيلنغ**: فيلسوف الماني ولد 1775 ومات في 1854،ينحدر من أسرة بروتستانتية، وقع تحت تأثير الكانطية التي ترتبط بها بغير ما اصالة كبيرة، كانت مؤلفاته الاولى، امكان صورة للفلسفة بوجه عام ،جورج طرابيشي ، المرجع السابق ، ص399.

2-جورج طرابيشي ، المرجع السابق،ص359 .

3- المرجع نفسه،ص255.

(**)**ارنست رينان**:(1823- 1892م)، مستشرق ومفكر فرنسي، عنى خصوصًا بتاريخ المسيحية وشعب إسرائيل كان يتقن اللغة العبرية، أمّا اللغة العربية لم يتقنها ولم ينشر أي نص عربي. عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص 311.

لقد كان اهتمام سبينوزا بالدين من أجل معرفة القوانين التي سنها وهل هي تخدم العقل أم أنها تعارضه، ولهذا نجد أن سبينوزا بعد دراسته المتعمقة للدين تبين في الاخير أنه يعمل على تقيد العقل، ولقد كان **لجاكوبي فردريش** jacobi friedrich* (1743-1819م)" أهمية كبرى في تاريخ الفلسفة الألمانية وإليه يعود الفضل إلى إعادة تسليط الضوء على فلسفة سبينوزا"[1]، حيث عمل على إظهار هذا الفكر العميق من جديد وإعادة إحيائها وتوضيح أهم العناصر التي تناولتها هذه الفلسفة بشكل أكثر توضيحا وتحليلا.

(*)- **جاكوبي فردريش**: فيلسوف الماني ولد عام 1743،ومات عام 1819،بدا منذ نعومة اظافره إلى التقوى والاستنباط والبوح بمشاعر القلب التأملية وعاش منفردا ،وكان يؤثر على العاب زملائه بالمطالعة ،الكتاب المقدس ، جورج طرابيشي ،المرجع السابق ، ص255.

1- جورج طرابيشي ،المرجع السابق، ص255.

المبحث الثاني: منتقدي فلسفة سبينوزا:

إذا كان البعض من الفلاسفة والمؤرخين يرون بأن فلسفة سبينوزا تمثل ذلك النسق المتكامل والذي كان له أثر على فلسفات العصر الحديث، وحتى فلسفات المعاصرة من خلال تجسيدها لعدة عناصر جديدة منها ، المنهج الهندسي وفكرة وحدانية الوجود، فإن هذا لم يمنع من وجود من ينظر إلى فلسفة سبينوزا على أنها فلسفة عقيمة، وأنها لم تأتى بالجديد، كما أن لهذه الفلسفة تجاوزات غير منطقية وخاصة في الجانب الديني ، إذ أنه أكد على أن الله والطبيعية شيء واحد، وكذلك تجسيد فكرة مبدوء الضرورة، أي أن كل ما يريد الفرد الحصول عليه يجب تحقيقه حتى و إن كان يتعارض مع مبادئ وقيم المجتمع وفي هذا الاتجاه نجد الفيلسوف ليبنتز قد كان من أشد المعارضين لفكر سبينوزا الذي في نظره ما هو إلا فكر مبهم وغامض ولا يعبر عن الفلسفة حيث يقول :"مذهب رديء من شأنه في أحسن الأحوال أن يبهر العامي ولا يمكن الدفاع عنه ومخالف للصواب".[1]

وفي نظر ليبنتز أن نهج سبينوزا لا يؤدي إلى اليقين ،كما أن ليبنتز عارض فكرة سبينوزا التي تدعو الأفراد إلى تجسيد القيم الاخلاقية وضرورة اطاعتها، بعيدة عن أي عقيدة دينية ،حيث بين ليبنتز أنه يجب تطبيق مبادئ العقيدة المسيحية فإذا كان سبينوزا قد رفض هذه العقيدة على أساس أن كل ما هو ديني يقف عائق أمام الحرية الفكرية، فإن ليبنتز يؤكد على ضرورة هذه العقيدة ويجب أن تجسد في المجتمع، حيث أن ليبنتز "اعتبر الرسالة اللاهوتية السياسية خطر على العقيدة المسيحية ، ولابد من تصدي العلماء المختصين في اللغات الشرقية لدحضه، وحماية المسيحين مما جاء فيه من سموم تهدد الدين" .[2]

وفي نظر ليبنتز أن كتاب سبينوزا، يهدد مقومات العقيدة المسيحية نظرا لما يحتويه من نصوص تدعو إلى التحرر الفكر، وبالتالي التمرد على أسس التي تنادي بها المسيحية والتي يجب أن تطبق تلك التعاليم حرفيا، وأن معارضتها يعتبر من أبشع صور الكفر والتمرد على هذا العقيدة المقدسة، هذا وقد عارض ليبنتز سبينوز وخاصة في الجانب الديني السياسي، حيث هاجم سبينوزا السياسي واللاهوتي والملحد الذي زعزع الثقة في العقيدة باسم حرية التفلسف، وإذا كان سبينوزا ا أراد أن يدعو البشر إلى طاعة المبادئ الاخلاقية الأساسية إذ هي وحدها كفيلة بتحقيق الخلاص، فإن ليبنتز في معارضته ورفضه لموقف سبينوزا من العقيدة

1- جورج طرابيشي ،المرجع السابق، ص361

2- ج، ف ،ليبنتز، ابحاث جديدة في الفهم الانساني ،نظرية المعرفة ،دار التوفيق النموذجية، لطباعة والجمع الاولى، الازهر،(د ط ت ب) ص4.

المسيحية، حيث رفض سبينوزا هذه العقيدة ، في حين أن ليبنتز يرى بأن كل الأخلاق تتأسس على المسيحية حيث يدافع عنها ويؤكد " أنّ هذه المبادئ الاخلاقية، والاجتماعية، لن تكون كافية بدون المسيحية،"[1].

لقد بين ليبنتز أن المسيحية هي العقيدة الجامعة لكل القيم الاجتماعية والاخلاقية ، وقد نص الكتاب المقدس على التأكيد على هذه القيم، وعلى كل فرد ينتمي إلى مجتمع ذو عقيدة مسيحية يكون مجبور على تطبيق تلك التعاليم التي جاءت بها المسيحية على للسان المسيح ، إن هدف المسيحية ليس ديني فحسب وإنما هو اجتماعي واخلاقي وعليه فلا يمكن أن تجد تجسيد لتلك القيم، إلا في إطار العقيدة المسيحية التي تحرص على تطبيقها، فإذا كان سبينوزا يرى بأنه يجب على جميع الأفراد تطبيق القيم الاجتماعية ، وأن بهذا التطبيق لها يكونوا قد خلصوا انفسهم من الخطيئة ويكون ذلك وفق العقل ،إذا أن العقل هو الذي يحدد به الإنسان ما يجب فعله ويجب تركه بعيد عن أي عقيدة دينية ،"وإذا كان نقطة الارتكاز الأساسية عند سبينوزا هي العقل فإن عند ليبنتز المسيحية هي التي ستوحد المبادئ الاجتماعية والاخلاقية والسياسية"[2]،حيث يبين ليبنتز أن العقيدة لمسيحية هي من تقرر المبادئ الاجتماعية والاخلاقية وحتى السياسية ، التي يجب أن يسير عليها سلوك الفرد داخل المجتمع وليس العقل هو من يقرر ذلك انطلاقا من كون العقل يسير وفق اهواء ورغبات الفرد وبتالي يجب أن يكون هناك رادع يجبر العقل على المضيء في الطريق الصواب، ولم يقتصر رفض ليبنتز إلى موقف سبينوزا من العقيدة المسيحية فقط، وإنما بين رأيه الرافض لكل ما تطرقت إليه فلسفة سبينوزا خاصة في مجالي الدين والسياسة ، وقد "ميّز ليبنتز بين اهتمامين أساسين من اهتمامات سبينوزا، أوّلهما الاهتمام العلمي الخاص بالبصريات والطب وصناعة النظرات وهو موضوع اعجاب وتقدير ليبنتز، وثانيهما الاهتمام بالدعوة إلى حرية التفلسف وتخليصها من سلطة اللاهوتيين وما أثره من قضايا فلسفية ولاهوتية حاول أن يدحضها ويعارضها دفاعا عن المسيحية"[3].

إن رفض سبينوزا لديانة المسيحية كونها لا تتوافق مع الكتاب المقدس، وكذلك كونها تقف عائق أمام الحرية الفكرية، جعل ليبتز يقف موقف الناقد الرافض لهذ الفكر المتطرف، ويؤكد له بأن العقيدة المسيحية هي العقيدة التي تسعى بالفرد الى بلوغ غاياته في إطار ديني، كما رفض فكرة سبينوزا في تجسيد المسيح بوجه خاص ،كما رفض ما ذهب اليه سبينوزا من وحدة الله والطبيعة من جهة و وحدة الروح والجسد من جهة أخرى، كما رفض تفسير سبينوزا للمعجزات إذ يقول بصددها في خطاب أولدنبرج،

1- ج ف، ليبنتز، المرجع السابق، ص 44.

2 -،المرجع نفسه ص ن.

3 - المرجع نفسه ،ص 45.

"المعجزات والجهل أمران متساويان، لأن اولئك الذين يلتزمون بإثبات وجود الله وتدعيم الدين بناء على معجزات يريدون اثبات الغامض بما هو أكثر غموض"[1] .

وبهذا الرأي الرافض لمبدأ المعجزات والتي تؤكده كل العقائد الدينية، التي تهدف إلى اثبات الله بوجود دلائل وإن كانت تبدو للبشر أنها غير منطقية والمعجزات ميزة يتميز بها الأنبياء والرسل عن غيرهم من البشر، وهي دليل على اختيار الله للعبد لتوصيل الرسالة السماوية، ولذا فإن ليبنتز يرفض موفق سبينوزا القائل بأن المعجزات ماهي إلا خرافة وأساطير يقوم بها الجهالة من الناس، لذى يرفض ليبنتز هذه الرؤية التي أكد عنها سبينوزا، في رفضه لوجود مبدأ المعجزات، التي أقرها الله على النبي المختار، حيث يؤكد ليبتز على أن المعجزة هي المقوم الأساسي التي تقوم عليه العقيدة المسيحية، ويدافع عن المعجزة ويعتبرها دعامة اساسية للدين المسيحي، ويرى" أن المعجزة تظهر سياقا فريدا للأسباب التي قد رتّبت من قبل، إنها لا تفوق طبيعة الأشياء بوجه عام وإنما هو تفوق طبيعة الاجسام الحسية،.....وقد بين ليبنتز النقاط التي رفضها في فلسفة سبينوزا وهي، الجوهر الوحيد، وأنه هو الله، والقول بأن المخلوقات والاحوال هي أثار لله، وكل شيء يعمل وفق غاية، وكل شيء خاضع لضرورة حتمية "[2] .

وبهذا يكون ليبنتز قد أكد على مدى غموض فلسفة سبينوزا خاصة وأنها الفلسفة التي جعلت وجود الإله مندمجا ضمن العالم المادي ، على أساس أن للإله جسد مادي يتمثل في وجود الكون باسره ،كما رفض فكرة الضرورة الحتمية التي من شأنها إذا تجسدت أن تبيح أو لا تعارض أفعال الشر إذا كانت الضرورة مقدمة على كل شيء. إن مناداة سبينوزا بفكرة الضرورة الحتمية يؤكد على أن أي فرد إذا أراد تحقيق شيء ما أن يقوم بأي فعل في سبيل تحقيق مبتغاه، دون النظر إلى أي قوانين سواء إن كان قانونا وضعيا أو قانونا عقائديا وقد يؤدي مبدأ العمل بالضرورة الحتمية إلى زرع الأنانية والتسلط بين الأفراد، وبالتالي انتشار فعل الشر بدلا من فعل الخير .

1- ج،ف،ليبنتز،المرجع السابق، ص 45.

2-المرجع نفسه ص 46.

وقد بين الفيلسوف **رشنباخ***، إن" سبينوزا له سمعة طيبة بين الفلاسفة، ويرجع ذلك إلى شخصيته، أكثر مما يرجع إلى فلسفته، فإذا ما جردنا مذهبه الأخلاقي من صورته المنطقية، لبدا لنا عقيدة لشخص متزن، يبدو في نظره ضبط النفس والعمل العقلي أسمى الفضائل على أنه حين عرض مذهبه الأخلاقي بصورة منطقية أثبت أن إعجابه بالمنطق يفوق مقدرته في مجال المنطق، والواقع أن منطق استنتاجاته هزيل ولا يمكن أن تفهم هذه الاستنتاجات بدون كثير من الإضافات الضمنية والتفسيرات النفسية"[1].

لقد كان موقف ريشنباخ من سبينوزا ذلك الناقد الذي يرى بأن مذهب الأخلاق الذي بيّنه سبينوزا على أن هذا المذهب اعتمد على منهج علمي عقلي مما أدى إلى عدم فهمه بوضوح ، إلا من خلال إعادة تحليله وتفسيره بطريقة سيكولوجية بدلاً من الطرق العلمية التي اعتمد عليها سبينوزا في تفسير السلوك البشري والذي كان يرى بأن الاعتماد على التحليل العقلي العلمي لسلوك الأفراد يؤدي إلى تحليله يقينيا وبشكل صحيح، إلا أن رشنباخ يرى عكس ذلك إن تفسير السلوك أو أفعال الإنسان وفق نهج علمي عقلي يجعلها أكثر غموضا، وبالتالي يجب تفسير السلوك وفق منهج نفسي مما يجعلها بديهية وواضحة لا تحتاج إلى تفسير معمق. إن اعتماد سبينوزا على مثل هذه الأسس، يجعل من فكره غير منسق حيث يقول ريشنباخ: "لا يمكن أن يعد مذهبه منسقا داخليا على الأقل، أي لا يمكن أن نستخلص نتائجه بطريقة صحيحة ،من بديهياته إذ أن هذه النتائج تتجاوز ،مضمون مقدماته بكثير، مثال ذلك أنه يقول بدليل الانطولوجي، على وجود الله غير أن التركيبات المنطقية غير صحيحة، يمكن أن تظل لها تلك الوظيفة النفسية في دعم المعتقدات الذاتية"[2].

أي أن سبينوزا يعتمد على منهج غير متسق، بحيث لا يوجد تناسق بين المقدمات والنتائج المتواصل اليها، وذلك لأن النتائج التي توصل اليها تحتوي على أفكار غير مشير اليها في المقدمة، بمعنى أن اتباع مثل هذا المنهج يؤدي أو يوصل إلى

(*)-**ريشنباخ**: فيلسوف الماني ولد في 1891،عضو في حلقة فينا وله مواقف أصيلة في مسائل المنطق ونظرية المعرفة وذهب إلى أن كارناب والوضعين المحدثين يخطئون إذ يبحثون عن اليقين المطلق ،كانت له مؤلفات منها اكسيو ماتيكا الاهداف والطرق في الفلسفة الطبيعية المعاصرة المنطق الاحتمالي، النظرية الاحتمالية.(ينظر:جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 321).

1- ج ف ، ليبنتز، المرجع السابق المرجع ص 47.

2- هانز ريشنباخ .نشأة الفلسفة العلمية ،تر فؤاد زكريا، منتدى ليبيا،د(ط، ت،ب) ص59

3 - المرجع نفسه، ص60.

حقائق أخرى لم يتم التطرق اليها في المقدمة ، وهذا ما يجعل عناصر الظاهرة المدروسة غير منسقة من حيث المقدمات والبراهين والنتائج، ويرى ريشنباخ أن البناء الاستنباطي الذي أشار اليه سبينوزا بأنه غامض ولم يأتي بالجديد حيث يقول ريشنباخ:"لقد كان البناء الاستنباطي للأخلاق عند سبينوزا، الذي كان يهدف إلى اثبات إمكان الإتيان ببرهان منطقي على القواعد الأخلاقية مجرد صورة ،أكثر تفصيلا وتعقيدا لفكرة **سقراط***،Socrate (470-399ق،م) القائلة أن الفضيلة هي العلم" [1].

وبها يكون ريشنباخ قد بين بأن البناء الاستنباطي في مجال الأخلاق التي تناولتها فلسفة سبينوزا ما هو إلا امتداد أو اعادة ادراج البناء الذي كان سائد في الفلسفة اليونانية القديمة وخاصة الفكرة التي تبنتها فلسفة سقراط لقد عالج سقراط البناء الاخلاقي بطرق سهلة وواضحة لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير بشكل كبير ، وإنما كان واضحا قريب من البداهة، إلا أن جاءت فلسفة سبينوزا الذي أضاف الغموض والتعقيد على هذا البناء الاستنباطي في علم الاخلاق. لقد أخذت فكرة وحدانية الوجود التي كانت الأساس الأول في بناء فلسفة سبينوزا، جدالا واسع وتضارب في الآراء بين الفلاسفة والمفكرين ، وحتى رجال الدين ،نظرا لما تشير إليه الفكرة من ارجاع الكون إلى الله ،وجعل الله جزء من هذا الكون ،وهذا لا يتماشى مع الاعتقادات الدينية وخاصة العقيدة المسيحية التي تنظر إلى هذه الفكرة على أنها تضليل وخروج عن الدين ، حيث أتهم سبينوزا بأنه ملحدا انطلاقا من نشره لتلك الفكرة، حيث نجد الفيلسوف، مالبرانش على اعتباراً من أنه" فيلسوف، ولاهوتي في الوقت نفسه كان من الطبيعي أن يرفض مذهب وحدة الوجود السبينوزية بسبب تعارضه الواضح مع مبادئ الدين المسيحي، و من أجل ذلك فإنه يعود إلى المذهب الميتافزيقي الديكارتي الذي يقر بثنائية النفس والبدن"[2]،إن المذهب الذي أكد عليه ديكارت قد فصل بين الجانب الروحي عن الجانب المادي. وبتالي ،فإن كل ما هو روحي يعود إلى الله أما الجانب المادي، فيمتثل في الجسم وهذا ما أكدت عليه المسيحية، إذ لا يمكن أن نعتبر أن الله يتكون من جسد ثم إن الجسد يرتبط استمراره بوجود الروح في حين أن الروح لا ترتبط به فوجودها منبثق من الجوهر الأزلي وهو الله .

(*)**سقراط**:فيلسوف يوناني ولد في الوبكية، باتيكا نحو عام 470،ق م، وامت في اثينا عام 399،ق م و كان ابوه نحاتا وامه قابلة، كان قوي الشكيمة للغاية ذا مظهر خارجي، سوقي لم يكن يشبه السفسطائين الذين يلبسون فاخر الثياب، ولا قدامى الحكماء الذين كانوا يشتغلون مناصب رفيعة، كان ناقدا عادم الشفقة لظنون البشرية ،أن أصل دعوته في الفلسفة نقطة انطلاق نشاطه في اثينا.(ينظر:جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص365).

1 – سليمة قايد ،المذهب الالي عند ليبنتز، رسالة دكتوراه، اشراف عبد الرحمن بوقاف، جامعة الجزائر .السنة الجامعية ،2009، 2010، ص73.

2-محمد الشيلي: تربية، الذات الانسانية ،بين النفي والاثبات ،رسالة ماجستير، إشراف دكتور ،عبد الله قلي ،السنة الجامعية،2008، 2009،ص82

وفي الفلسفة الاسلامية نجد أن الفيلسوف **محمد اقبال**** قد سار عكس ما ذهب عليه سبينوزا في فكرة وحدانية الوجود، حيث جعل سبينوزا الله والعالم الخارجي هما الشيء نفسه، إذ لا يمكن أن ينفصل الله عن العالم الخارجي حيث بين اقبال "بأن العالم الطبيعي مجرد صورة أو وجها أو مظهرا للحقيقة الاصلية التي هي الذات الإلهية وبقاء العالم هو بقاء بالقوة لا بالفعل وبتالي تزول معه الجوهرية"[1].

ومن هذا نرى بأن محمد اقبال يعارض سبينوزا في ارجاعه العالم الطبيعي إلى الله ،في حين أن هذا العالم ما هو إلا تجسيد وابداع من الله حتى تتجلى قدرة الله في صنع هذا الكون، ثم إن بقائه واستمراريته موجودة بقوة الله على ذلك ، كما أن فنائه لا يعني فناء الله لأن وجوده كان له علة مرهونة بوجود الله وأن كل من كانت له علة في الوجود فإن وجوده غير أزلي ، وإنما هو وجود يحول إلى الفناء لا محالة "حيث أن العالم لا يمكن أن يكون حقيقة مستقلة عن الذات الإلهية ومواجهة لها بل إن الخلق صفة أزلية للذات الإلهية يزيد فيها الله ما يشاء"[2] .

أي بقاء العالم الطبيعي هو من إرادة الله الذي أوجده، وبالتالي فإن هذا العالم يستحيل أن يوجد خارج الذات الالهية، فالله له القدرة الفاعلة على بقاء هذا العالم الطبيعي كما أن له القدرة على عدم وجوده ، فهذا العالم ما هو إلا خلق من المخلوقات التي أبدع الله فيها حسن الإبداع، فقد أوجده الله بعد حالة الانعدام التي كان فيها، ولهذا فلا يمكن أن ندمج أو نقول بأن العالم الطبيعي هو الله وأن الله هو جزء من العالم الخارجي.
وقد كانت فكرة الضرورة التي عالجتها فلسفة سبينوزا محل نقد ورفض العديد من الفلاسفة وخاصة الفلاسفة التجريبين حيث نجد في هذا الاتجاه الفيلسوف هيومHume david (1711-1776م)الذي بيّن رفضه لهذه الفكرة ،حيث يذهب هيوم إلى "وجود ترابط بين الأفكار الذي يكون أساسه التشابه والتعاقب في الزمان والمكان ،ورابطة العلة بالمعلول التي يعتبرها هيوم أهم هذه

(*)– **محمد اقبال**: ولد محمد اقبال في 1294ها،1877م،في مدينة سيالكوت، إحدى مدن البنجاب، ولد اقبال في اسرة كريمة الا صل ومن ابوين فاضلين ،تقيين استطاع أن يغرس في نفس اقبال الايمان وحب الاسلام، اخذ عن ابيه التربية الدينية والاخلاق المحمدية ،وكثيرا ما يتطبع الانبياء الابناء بسيرة الأباء فكان محمد ،نور المعلم الاول الذي تخرج، على يديه اقبال في مدرسته، وقد توفي سنة 1938.– رائد عبد الجبار ،فلسفة الذات في فكر محمد اقبال، دار نينوى لدراسات والنشر والتوزيع، سوريا ،د ط، 1429ها، 2009م، ص ص 37، 46.

1–امحمد الشيلي، تربية الذات الانسانية،بين النفي والاثبات، رسالة ماجستير ،اشراف عبد الله قلي ، السنة الجامعية 2008، 2009م ص 82.

2–حمالي فريدة، المرجع السابق، ص 88.

العلاقات لأن جميع الاستدلالات الواقعة قائمة على علاقة العلة بالمعلول وهي الوحيدة التي تنبؤنا بأشياء لا نراها" [1] وفي هذا يكون **هيوم*** قد جعل علاقة بين السبب والمسبب فلا يمكن أن نجد علة بدون أن تحقق معلول فكل ما يحدث في الكون يكون وفق وجود علة ومعلول ،وإن كان الاتجاه العقلي يرى عكس ذلك ويرى هيوم بأن" تكرار حدوث الموضوعات هو الذي ولد في الذهن فكرة الرابطة الضرورية، فملاحظتنا للموضوعين متتابعين وتكرار هذه الملاحظة يجعلنا نتذكر أن هذين الموضوعين قد تكرر حدوثهما بانتظام، فينساق الذهن بطبيعته إثر حدوث ظاهرة إلى توقع ما يتبعها عادة وافتراض وجود قوة، في احدهما على انتاج الأخر فتسمى الواحدة علة والأخرى معلول"[2].

لقد أكد هيوم بأن يوجد علاقة ترابط بين العلة والمعلول فلا يمكن أن يقتصر وجود الظواهر على العلة فقط وإنما يجب أن يكون لها معلول لأن العلة هي سبب في وجود الموجودات والتي تعتبر معلول لها. أي أن "فكرة الضرورة في نظر هيوم هي شيء قائم في الذهن أو في الذات العارفة ،وليس في امكان العقل أن يلاحظ أي رابطة واقعية بين الموضوعات بل إن مصدر هذا الترابط هو الخيال الذي يكون أساسه العادة التي تجعل الإنسان يشعر بوجود رابطة ضرورية بين الموضوعات"[3].

وقد بين هيوم بأن علاقة العلة بالمعلول يصل اليها الانسان من خياله الواسع، ومن شعوره النفسي وقد أراد هيوم أن يبين بأنه لا يمكن أن نعتمد على مبدا الضرورة في العالم، لأن هذا ما يجعل كل الموجودات خاضعة لضرورة، وإذا خضع الإنسان إلى فكرة الضرورة فإن هذا يؤدي إلى نفيه لكل القيم الاخلاقية مما يؤدي إلى الانحلال الأخلاقي، فإذا قلنا خضوع الأفعال إلى الضرورة فلا معنى للجزاء الإلهي من ثواب وعقاب ويكون للأفعال الشريرة ما يبررها وبالتالي لا يكون معنى لقيم الأخلاق

1- امحمد الشيلي ،المرجع السابق،ص 88.

2-حمالي فريدة،المرجع السابق، ص 82.

3- المرجع نفسه ،ص82.

(*)**– دافيد هيوم**: فيلسوف ومؤرخ ،وعالم اقتصادي اسكتلندي، ولد في 1711،وتوفي 1776 ينحدر من اسرة متوسطة الحال ،دخل الى جامعة ادنبرة في عامه، الثاني عشرة وتاركها، في عامه، الخامس عشر، وارته بعد ذلك اسرته، لكن اهتمام الذي حركته ،الفلسفة في نفسه منذ مراهقته ،دفع به الى دراسة مسالة المعرفة، عمل على ادخال المنهج التجريبي الى حقل العلوم الاخلاقية ،فأعاد كتابة الرسالة في الطبيعة البشرية.(ينظر،جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص ص 726، 727).

فالحديث عن الأخلاق لا يكون إلا إذا كان الإنسان حرا قادرا على ما يسعى إليه دون خضوع أفعاله إلى الضرورة[1]، إذ أنه لا يكمن تطبيق مبدأ الضرورة في الأخلاق التي ترجع إلى الحرية التي يتمتع بها الإنسان، قولنا بأن الإنسان خاضع لضرورة يعني أنه غير حر فهو خاضع لكل القوانين التي تفرضها الضرورة وهي في الوقت نفسه تعمل على الحد من القيم الأخلاقية.

1-حمالي فريدة، المرجع السابق، ص 89.

المبحث الثالث: سبينوزا راهنـا

إنّ ما يميز فلسفة سبينوزا عن غيرها من الفلسفات أنها كانت فلسفة ذات نزعة انسانية، رافضة لكل أنواع الظلم والتعصب التي يعاني منها الإنسان عبر مراحل حياته، كما أن سبينوزا استطاع بفكره الفلسفي ذو الطابع الحر إن يواجه ويضع حد لتميز العنصري والاستعلاء، وأن يزيل فكرة اعتقاد الشعب المختار التي كانت تسيطر على أذهان الناس ،فقد أبدى رأيه في الطائفة اليهودية بكل جرأة وحرية، ولم يكن يأبه لأي ضغط يحول بينه وبين نشر أفكاره التي كانت تدعو إلى التحرر الفكري، وإلى تجسيد مبدأ العدالة والمساواة بين الناس، كما أنه كان يريد من خلال فكره أن يزيل بعض المعتقدات الدينية الخاطئة والتي تمثلت في "تشبيه الإنسان وتقضي على التعارض بين المفاهيم التي يقدسها الدين والمفاهيم التي يعتمد عليها الجانب العلمي، وبسبب فكره فقد تعرض إلى الانتقادات أدت إلى حرمانه من الكنيس اليهودي ، ولم يتراجع عن آرائه أو يسعى إلى استعادة روابطه بتلك الطائفة ،وإنما ظلّ حتى نهاية حياته يوجه أشد الانتقادات وأعمقها ، لنفس الأسس والجذور التي يقوم عليها كل تعصب ديني وكل محاولة لإقامة كيان سياسي على أساس ديني عنصري"[1] .

لم تكن هذه الفلسفة ترتكز على أهم المعضلات الفلسفية التي كانت سائدة في عصر الفيلسوف سبينوزا ، أو أنها احتوت قضية معينة فقط، وإنما كانت شاملة وجامعة لكل القضايا التي تمس الفرد، من جميع النواحي فقد عالج سبينوزا أهم فكرة وهي وجود الله ،حيث بين أن الله هو علة الوجود بأكمله حيث يقول " الله السبب الفعال ليس فقط في الوجود الأمور بل أيضا في جوهرها"[2] .

أي أن وجود الأشياء لا يتوقف على وجوده من الجانب المادي فقط ، وإنما وجودها الجوهري متوقف على الجوهر الأزلي وهو الله وبعد دراسة وجود الله واثبات وجوده على عدة براهين فقد عرّج إلى دراسة الإنسان من جانبيه المادي والروحي، وكذلك الجانب السلوكي وكل ما يخص هذا الكائن . وقد اعتمد على منهج مخالف لما كان متعارف عليه بين الفلاسفة، ويتمثل المنهج الذي اعتمد عليه في المنهج الهندسي، وضعه سبينوزا في دراسة سلوك وأفعال الفرد حيث يبدا بعرض القضية ثم يعرفها ويقدم عليها أدلة وبراهين، وذلك من أجل أن تكون الدراسة دراسة يقينية ولا يمكن الشك فيها ،كما عالج سبينوزا قضية الدين إذ

1 فؤاد زكريا، المرجع السابق ص 6.

2-Benedict spinoza Ethics.Demonstrated.in Geometrical. order .page. 13.

أن سبينوزا هو أول من لفت الانتباه إلى دراسة قضية الدين وعلاقته بالجوانب الاخرى. إذ بيّن سبينوزا الدين على أنه معتقد يهتم بوجود الله أو هو العلم بوجود الله، وكيفية الوصول إليه دون الاعتماد على إرشاد الأنبياء والمعجزات، حيث عارض سبينوزا فكرة المعجزات وراء بأنها خارجة عن المألوف، وإن الإنسان إذا ما اعتمد على فكره فإنه حتما يهتدي إلى أن وراء هذا الوجود موجود أزلي الوجود، هذا وقد دعا سبينوزا إلى ضرورة تجسيد مبدا التحرر الفكري، وأن هذا التحرر يعيد إلى العقل مجده وطبيعته إلتي تميل إلى التفكير وحب الاستكشاف، وقد بين بأن الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يحقق للعقل حريته، هو اندماج الأفراد تحت لواء واحد، ويتمثل في تأسيس الدولة، حيث تتمثل الدولة في مجموعة الأفراد المتعاقدة والمتفقة فيما بينها على مجموعة من القوانين شرط أن تطبق تلك القوانين وفق ما تم التعاقد عليه ، إذ أن الأفراد تنازلوا عن جزء من حقهم الطبيعي، من أجل الحصول على بعض الحقوق منها المحافظة على البقاء وتحقيق الأمن، وممارسة الحرية الفكرية. وقد بين سبينوزا بأن الحرية الفكرية لا يمكن أن تطبق إلا إذا كان هناك نظام ويرى بأن أفضل نظام لذلك هو النظام الديمقراطي، الذي يجسد تلك الحرية ،إذ أن الحاكم في هذا النظام ليس له الحق في التدخل في الشؤون الرعية إلا في الأمور الخارجية أو السطحية أم الجانب العلمي، فيرى سبينوزا أنه لا يمكن أن يكون هناك تدخل من طرف الدولة لأن هذا سيعيق الفكر ويقيده، كما أنه أكد على ضرورة أن يبقى الدين منفصلا عن مجال السياسة وجميع المجالات ،وذلك لأن للدين قوانين تخالف القوانين التي يسير عليها المجتمع على أساس أن مصدر تلك القوانين لم يكن وضعيا وإنما كان ذات مصدر إلهي، وإنّ ما هو موجود في الكتاب المقدس يخالف ما يطبقه رجال الدين، وإن الكنيسة قد فقدت مكانتها وهيبتها، بسبب جعل الدين وسيلة لتحقيق غايات وأهداف تخص سلطة الكنيسة وكانت بعيدة كل البعد عن التعاليم التي جاء بها الأنبياء والرسل .

كان فكر سبينوزا في عصره فكر مخالفاً تمامًا لما كان سائدا في عصره ، حيث تميز العصر الذي عاش فيه وخاصة البيئة التي ينتمي اليها من عدم الاستقرار والاضطهاد التي تعانيه فقد انتمى إلى طائفة مهاجرة، ولم يهتم أي مفكر في ذلك العصر بما يقوله سبينوزا أو يدعو اليه، فقد كان البعض يروى بأن ما يريد سبينوزا نشره هو أساطير وهرطقة فيما بين البعض الأخر بأن هذه الأقاويل تشكل خطر على الجالية اليهودية التي جاءت إلى هولندا من أجل تحقيق الأمن، والاستقرار فقد تقرب منه رجال الدين اليهود من أجل العدول عن ما يقوله، لأنه مخالف للعقيدة كما أنه يعمل على التقليل من شأن الجالية اليهودية في ظل الديانة المسيحية، إلا أن سبينوزا كان صارمًا معهم ولم يتراجع عن الفكر المقتنع به، مما أدى إلى طرده وابعاده عن طائفته وعن دين أجداده، وقبل ذلك بكل

صدر رحب، بل اعتبره بداية لتحرره الفكري، الذي طالما كان يسعى إلى تحقيقه، إن هذا الفكر المتحرر جعل الكثير من الفلاسفة والمفكرين في عصره لا يهتمون به وقد ظلت فلسفة سبينوزا فترة طويلة من الزمن تعاني الركود إلى أن بدت تشق طريقها إلى الفكر والتحري من جديد فقد أعاد إحيائها الفيلسوف جاكوبي في النصف من القرن الثامن عشر، الذي ألّف كتاب بعنوان في فلسفة سبينوزا ورسائل إلى مندلسون، ومنه "بدأ فكر سبينوزا يثير الكثير من المفكرين أمثال هيجل ،وليسنغ وفخته، وكذلك أثر في الشعراء والأدباء والرومانسيين، الذين كانوا يقبلون نوعا من التالية الرومانسي لطبيعة الشاملة، ومن ثم أصبح أحد أعلام الفلسفة"[1]،وقد بين ليسينغ بأن لا يكمن ايجاد فلسفة، إلا فلسفة سبينوزا، حيث يقول"لست أدري شيئا أخر.....فلا وجود لفلسفة أخرى غير فلسفة سبينوزا"[2] .

لقد أثّرت الفلسفة السبينوزية في العديد من الفلاسفة في العصر الحديث، وحتى المعاصر، إذ يمثل فكر سبينوزا مرجع الكثير من الفلاسفة، حيث يقول شيلنغ"... إن السبينوزية ورغم الهجمات العديدة والدحوض الكثيرة ،لن تمس قطا جزء من الماضي ولم تغلب قط غلبًا حقيقيا ،إلى يومنا هذا وإذا لم يغرق المرء في لجتها ولو لمرة واحدة في حياته فإنه لن يقيض له أبدا أن يأمل بالوصول إلى الحق والكمال في الفلسفة "[3]، ويعني شيلنغ بذلك أن فلسفة سبينوزا استطاعت أن تصل بالعقل إلى أسمى درجات الكمال. .

مثلت فلسفة سبينوزا في تاريخ الفلسفة نقطة تحول من فلسفات جامدة تعالج موضوعات بديهية إلى موضوعات جديدة لم يسبق وأن عالجها الفلاسفة من قبل، إن مذهب وحدانية الوجود التي تبنته فلسفة سبينوزا قد أحدث إعادة لدراسة الدين، وكل قوانين وأسس التي كان يسير عليها الفكر، فإذا كان المنطلق العام الذي يبدأ الفكر منه هو دراسة الوجود انطلاقا من الثنائية الوجود أي إرجاع أصل الوجود إلى أنه يعود في الأصل إلى الوجود المادي والوجود الروحي، وهي الفكرة التي تجسدت معالمها مع فكر ديكارت، فإن المنطلق مع سبينوزا قد اتخذ اتجاه معاكس، إذ أنه بين بأن أصل الوجود واحد، فإن كل الموجودات تنبثق عن مصدر واحد. وقد أطلق عليه سبينوزا الجوهر الأزلي والثابت وهو الذي يتمثل في الله، إن الله في نظر سبينوزا هو علة في الوجود كما أن

1 – حمالي فريدة، المرجع السابق، ص 86.

2 – جورج طرابيشي ،المرجع السابق ص361.

3 – المرجع نفسه،ص36.

انعدام الوجود يعود اليه. وقد" ارتفع تأثير سبينوزا في انجلترا اثناء الثورة وتأثر به كولبردج، واقتبس شبلي من رسالة الدين والدولة وبداء في ترجمتها ،ووعده بيرون بوضع مقدمة لها"[1].

وبهذا تكون فلسفة سبينوزا التي احتوت وعالجت جميع القضايا قد مهدت الطريق إلى الفلاسفة من بعده، حيث بنى الفلاسفة الذين تأثروا بفكره فكرهم واتجاههم على إنقاذ هذه الفلسفة. حيث أن" سبينوزا ،كان المفكر الوحيد ثاقب النظر الذي استطاع أن يخرج مضامين الفلسفة الديكارتية في جانبها الواحد إلى نتائجها المنطقية..... وقد قام بعقليته البارعة بتحويل أفكار أخذها من جميع تلك المصادر ،إلى مذهب أصيل ومستقل حتى أصبح يدين له فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين"[2]، وبهذا تكون فلسفة سبينوزا النموذج الذي سارت عليه فلسفة ما بعد سبينوزا .

1-الشيخ كامل محمد عويضة، باروخ سبينوزا فيلسوف المنطق الجديد ،المرجع السابق ص 131.

2 - وليم كريت، مرجع السابق ،ص 111.

خاتمة

ممن خلال ما عرض في هذا البحث توصلنا إلى النتائج التالية:

1-اعتماد سبينوزا على فكرة وحدانية الوجود، وهي فكرة جاءت كرد على الثنائية الديكارتية ، حيث يرجع هذ الأخير إلى أن أصل الوجود يكمن في وجود الفكر والمادة، في حين أن سبينوزا بّين عكس ذلك أن أصل الوجود ينحصر في جوهر واحد وكل الموجودات ترجع إلى وجود الجوهر أولا.

2- أن لسبينوزا إله حيث بين سبينوزا أن الله هو علة بذاته، وأنه هو علة في وجود كل الموجودات، إذ أنّ سبب وجود هذا الموجود يعود في الأساس الى الله كما أن سبب عدم وجود الموجودات يرجع إلى الله أي أن الله هو علة في الوجود وفي عدم الوجود.

3-اعتمد سبينوزا على المنهج الهندسي باعتباره منهجا دقيقا من أجل أن تكون دراسة الظواهر دقيقة ويقينية ،كما أنه طبق المنهج العلمي على الظواهر الانسانية.

4-رفض سبينوزا لكل من العقيدة اليهودية، والمسيحية، وذلك بسبب الاختلافات والتناقضات التي وجدها في هذه العقيدة حيث وبعد دراسته للكتاب المقدس وجد أن التعاليم التي نادى بها موسى مخالفة لأفعال رجال الدين ،وكذلك الأمر نفسه مع المسيح.

5- سبينوزا دعا الى ضرورة فصل الدين عن السياسة ،لأن الدين في نظره يرتكز على أسس قوانين تجعل الفكر مقيد، كما أن هذه القوانين تختلف عن تلك التي تعمد عليها الدولة.

6-إن أفضل نظام لتجسيد مبدأ الحرية الفكرية وتطبيق العدالة والمساوة في نظر سبينوزا هو النظام الديمقراطي، حيث يجعل هذا النظام نوع من التواصل بين الحاكم والمحكومين، مما يؤدي إلى قبول رأي الآخر وبالتالي الوصول إلى حل كل الاختلافات بين افراد المجتمع والاسرة الحاكمة.

7- ونستنج كذلك أن سبينوزا أكّد على أن من حق الدولة مراقبة ما تقوم به الكنيسة، أي ضرورة خضوع سلطة الكنيسة إلى قوانين السلطة الدنيوية، كما أن على الدولة ألا تعارض ما تقوم به الكنيسة من ترسيخ لطقوسها الدينية شرط، أن لا تدخل الافراد في تلك الطقوس.

8- تأكيد سبينوزا على اهمية الدولة في تنظيم المجتمع، وضمان لحقوق الافراد ،كما أن من أهداف الدولة هو المحافظة على بقاء واستمرار حياة الافراد.

9-بين سبينوز بأن الحق الطبيعي جزء مهم في قيام وتأسيس الدولة، حيث يتم من خلال تنازل الأفراد عن جزء من حقهم الطبيعي للحصول على حقوق أخرى كحق المحافظة على البقاء وتحقيق الأمن على الصعيد الداخلي والخارجي.

10-نتستج كذلك بأن سبينوزا أكد على اهمية ودور الدولة ،في تنظيم المجتمع والخروج به من نمط الفوضى الذي كان سائد في المراحل الأولى إلى مجتمع أكثر تنظيم وهدء، إلا أنه يؤكد في الوقت نفسه بعدم تدخل الدولة في الشؤون الخاصة للأفراد، وخاصة في المجال التعليمي.

11- من أهم الأفكار التي دعا سبينوزا إلى تجسيدها هي فكرة التحرر العقلي، حيث بين بأن الحرية الفكرية تعمل على جعل العقل يصل إلى درجة الكمال ،كما بين أن من معوقات الفكر هي ارتباطه بالدين، إذ أن للدين قوانين تقيد العقل وتجعل دائرة فكره محدودة.

قائمة المصادر و المراجع

- **قائمة المصادر والمراجع**

أولا: المصادر.

1–إسبينوزا ،الإتيقا ،تر، أحمد العلمي إفريقيا الشرق ،المغرب (د–ط)،2012.

2– باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، تر، جلال الدين سعيد، دراسات الوحدة العربية ،بيروت، الطبعة الأولى،2009.

3– سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر ،حسن حنفي ،دار التنوير لطباعة والنشر، بيروت ،الطبعة الأولى،2005.

4- سبينوزا، رسالة في اصلاح العقل ،تر ،جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر ،تونس،(د–ط)1999.

ثانيا: المصادر باللغة الأجنبية:

1-Benedict spinoza , ethics, Demonstrated in Geometrical order .

ثالثا المراجع باللغة العربية:

1-. اندريه كرسون ،فولتير ،تر، صباح محي ،الدين منشورات عويدات ،باريس ،بيروت، الطبعة الثانية

2–ابراهيم مصطفى ابراهيم ،الفلسفة الحديثة، دار الوفا للطباعة والنشر ،مصر ،(د–ط)،2000.

3-الشيخ كامل محمد محمد عويضة، باروخ سبينوزا فيلسوف المنطق الجديد، دار الكتاب العلمية ،لبنان ،الطبعة الأولى،1993.

4- الشيخ كامل محمد محمد عويضة، الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ،دار الكتب العلمية ،لبنان، الطبعة الأولى،1993.

5-برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية ،تر، محمد فتحي الشطي ،المصرية العامة للكتاب، مصر،(د–ط)1980.

6-جورج سعد ،تطور الفكر السياسي في العصور القديمة والوسطى ،دار الكتب العلمية ،لبنان الطبعة الأولى 1993.

7-جنفياس روديس لويس ،ديكارت والعقلانية ،تر ،عبدو حلو، منشورات عويدات ،بيروت ،الطبعة الرابعة ،1988.

8-جون كونتفاهم ،العقلانية ،تر، محمود منفذ الهاشمي، مركز الانتماء الحضري، سوريا ،الطبعة الأولى،1997.

9-ج،ف،ليبنتز،ابحاث جديدة في الفهم الإنساني نظرية المعرفة، دار التوفيق النموذجية، للطباعة والجمع الأولى الأزهر(د-ط)،(د-ت).

10-ديديه جوليا ،فخت، تر ، حسيب النمر، المؤسسات العربية ،لدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،1980

11-هانز ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية ،تر،فؤاد زكريا، منتدى ليبيا للجميع،(د-ط)،(د-ت).

12-ولتر ترستيس ،فلسفة هيجل، ميشيل رميناس ،هيجل والديمقراطية ،تر، امام عبد الفتاح امام، مكتبة مدبولي (د-ط)،1996،المجلد الثاني.

13-وليم كلي رايت ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،تر، سيد أحمد ،التنوير للطباعة والنشر، لبنان ،الطبعة الأولى،2010.

14-ول ديورنت ،قصة الفلسفة ،تر، فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة

15-يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي ،لتعليم والثقافة ،مصر،(د-ط)،2012.

16-كريم متى، الفلسفة الحديثة عرض نقدي ،دار اويا للطباعة والنشر ليبيا، الطبعة الثانية،2000.

17-ليوشتراوس جوزيف كروبسى ،تاريخ الفلسفة السياسية، تر، محمود السيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة،(د-ط)،2005،الجزء الأول.

18-ماجد فخري ،أرسطو طاليس ،المطبعة الكاثولكية،(د-ط)،بيروت،1958.

19-محمد علي ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، دار المعرفة الجامعية ، (د-ط)،مصر،1996.

20- منذر شباني ،سبينوزا واللاهوت ،وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا،(د-ط)،2000 .

21 - نجيب بلدى، ديكارت، دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثانية،2004.

22 - عامر فياض، علي عباس مراد، مدخل إلى الفكر السياسي القديم والوسيط، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ،جامعة فاريوس،(د-ط)،201.

23- عبد القادر تومي ،اعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث ،مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى،2011.

24-علي عبد المعطي، وأخرون، الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية ،مصر،(د-ط)، 2002.

25-علي فهم حشمي ،الفلسفة والسلطة ،الدار الجماهرية للنشر والتوزيع، ليبيا ،الطبعة الأولى،1999.

26-فؤاد زكريا ،سبينوزا ،دار الوفا لدنيا الطباعة والنشر ،مصر، الطبعة الأولى2008.

27-رينه ديكارت، تأملات ميتافيزيقيا في الفلسفة الأولى، تر، كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت ،باريس الطبعة الرابعة،1988.

28-رينه ديكارت، حديث الطريقة ،تر ،عمر الشارني ،مركز دراسات الوحدة العربية ،الطبعة الأولى،2008.

29- رينه ديكارت ،مقال عن المنهج، تر ،محمود محمد الخضري ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مصر ،الطبعة الثالثة،1985.

30-رائد عبد الجبار ،فلسفة الذات في فكر محمد اقبال، دار نينوى لدراسات والنشر والتوزيع ،سوريا (د-ط)،2009

31-ت،ج دبور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، الدار التونسية للنشر، الجزائر،(د-ط)،(د-ت).

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية.

1-Descartes .discour, mèthode ,prèsent .par ,omar mehibel, enag, Editions,1991.

2- jean- lechat ,Discours,de la méthode,descartes,nathan,france,1996.

3-spinoza ,complate ,work ,vranstations ,samuel by,shirley.2000.

رابعا: المجلات.

1-عبد الله السيد، مجلة الإحياء الحق الطبيعي ومقاصد الشريعة ،الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب،2016.

2-اسماعيل ميرشم ،مجلة الحوار المتمدن، تعريف الدكتاتوريات، العدد،(د-ب)،3425، 2011.

3-عبد الله السيد ولد أباه مجلة التسامح ،الدين في الفلسفة الحديثة،العدد43، 2014.

4- بوابة المدينة،www.madinagate.com.

خامساً: المعاجم والموسوعات :

1- أندري لالاند ،موسوعة لا لا ند الفلسفية ،ترجمة أحمل خليل ، أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت ، 2001، المجلد الأول

2-ابراهيم مدكور ،المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة،(د-ط)،1983.

3-جميل صليبا ،المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني، للبنان،(د-ط) ،1982،الجزء الأول.

4-جميل صليبا ،المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان،(د-ط)،1982،الجزء الثاني.

5- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة ،بيروت ،الطبعة الثالثة،2006.

6-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار المعلم للملايين ،لبنان ،الطبعة الثالثة،1993.

7-فؤاد كامل اخرون ،الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار المعلم ، بيروت، لبنان (د-ط)،(د-ت).

8-خلف الجراد، معجم الفلاسفة المختصر، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت ،الطبعة الأولى،2007.

9- روزنتال يودين ،الموسوعة الفلسفية ،تر سمير كرم، دار الطليعة ،بيروت، (د-ط)،(د-ت).

.سادسا: الرسائل الجامعية.

1.أمحمد الشيلي، تربية الذات الإنسانية بين النفي والإثبات ،إشراف، عبد الله قلي،2008-2009.رسالة ماجستير.

2.حمال فريدة ،وحدة الإله والطبيعة في مذهب سبينوزا، إشراف ، عبد الرحمن بوقاف، جامعة الجزائر، معهد الفلسفة،2001-2002. رسالة ماجستير.

3.سليمة قايد، المذهب الألي عند ليبنتز، إشراف، عبد الرحمن بوقاف، جامعة الجزائر،2009-2010.رسالة دكتورا.

الفهرس

مقدمة.

- **الفصل الأول: فلسفة سبينوزا: السياق الفكري والتأسيس الفلسفي.**

المبحث الأول: الدين والسياسة عند فلاسفة العصور الوسطى.....05

المبحث الثاني: فلسفة سبينوزا والعقلانية الديكارتية.....11

المبحث الثالث: مفهوم الطبيعة البشرية عند سبينوزا.....15

- **الفصل الثاني: طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة في فلسفة سبينوزا.**

المبحث الأول :فلسفة الدين عند سبينوزا.....21

المبحث الثاني :فلسفة السياسة عند سبينوزا.....32

المبحث الثالث: علاقة الدين بالسياسة عند سبينوزا.....36

- **الفصل الثالث: فلسفة سبينوزا في ميزان النقد.**

المبحث الأول: مؤيدو فكر سبينوزا.....49

المبحث الثاني: منتقدي فلسفة سبينوز.....57

المبحث الثالث: سبينوزا راهنا.....64

خاتمة.....68

قائمة المصادر والمراجع.....71

الفهرس.....77

الملخص:

(علاقة الدين بالسياسة) هي الإشكالية الفلسفية التي أراد سبينوزا أن يجد لها حلا، فقد بين سبينوزا بأن لكل من الدين والسياسة مجاله الخاص به، انطلاقا من فكرة أنّ للدين قوانين تعمل على تقيد العقل ، وتعمل قوانين السياسة على المحافظة على سلامة الفكر من الانحراف والتخلف، ويتمثل الهدف الأسمى لسبينوزا من دراسة علاقة الدين بالسياسة وهو تحرير الفكر لذى أكد على ضرورة فصل الدين عن السياسة ، كما أنه لم يرفض الدين وإنما جعل له ميدانه الخاص به ، وكذلك لم يعارض تدخل الدولة في الشؤون الدينية ،وإنما أكد بأن ذلك ضرورة يجب تجسيدها.

Résumé

La relation entre la religion et la politique ,et la problématique,

philosophique que SIPINOSA veut lui trouver une solution-al a dit que chacun a son champ particulier en s 'appuyant su l'icleè que la religion a des lois qui servent à limiter ,la liberté de l' esprit alors que la politique sert à libérer l' spirit , des i dès et des ,pensées qui ne sont pas vola bels .l'objectif de SIPINOSA est de libérer l'esprit qu'il assure de l'obligation d'étudier la relation de la religion et la politique et la nécessité de les séparer ; il ne réfute pas la religion mais il a déter miné son chaup , de plus , il ne réfute que l' état ne s èn mêle aux problèmes religi eux.